مَوقف الدكتور محمّد محمَّد حُسَين

مِنَ الحركاتِ الهدّامَة

تأليف

الدكتور ابراهيم محمّد إسماعيل عوضين

وكيل كلية اللغة العربيّة

المنصورة - جامعة الأزهر

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

موقف الدكتور محمد محمد حسين
من الحركات الهدامة

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

إخواني الأعزاء. . . السلام عليكم ورحمة الله وبعد: -

فيسرني أن أمثل جامعة الأزهر في هذه الندوة العلمية ذات الوفاء الجم والإنصاف النبيل، وقد كان فقيد الأدب والعروبة والإسلام الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين أزهريًا بروحه، أزهريًا بسلوكه، أزهريًا بالتزامه الأدبي ومفهومه الروحي، فهو ينادي الأزهر من مكان قريب، ولئن فات جامعة الأزهر أن تحظى به أستاذاً من خيرة أساتذتها، فلم يفتها أن تنتفع بآثاره العلمية، لأن كتبه الثمينة، ودراساته النفيسه هي مراجع الدارسين من طلاب الدراسات العليا في الأزهر، يرجع إليها دائماً من يبحثون في الأدب العربي الحديث بخاصة، والأدب العربي بعامة، فتجدها واضحة المكان في رسائل الدكتوراه والماجستير، وتجد نقولاً منها تنبىء عن اهتمام الدارسين، وجهدهم الكبير، وتقديرهم البالغ، بل إن روح الدكتور محمد محمد حسين قد سيطرت على نفر من الدارسين، فأصبحوا ينتحون مذهبه، ويتجهون وجهته، ومنهم من يكاد يحفظ مقالاته وبحوثه، لأن الراحل الكبير كان أديباً ملتزماً، يكتب بروحه وعاطفته مع ما يتمتع به من فكر قوي وإدراك جيد، لذلك كان تأثيره القوي ذا نفاذٍ في قلوب دارسيه وعقولهم، بل إنني أجد نفراً من الدعاة من غير أصحاب الدراسات الأدبية من طلبة كليتي الشريعة وأصول الدين بالأزهر، قد ولعوا بدراسات الدكتور محمد محمد حسين،

فكانت زاداً لهم في معالجة ما يتصدون له من أدواء العصر وترهات المغرضين، وقد هداهم الراحل الكريم إلى منابع ثرة لا ينضب لها معين، فهم من نوره مقتبسون، وعلى ضوئه سائرون، وحسبه أن يكون مصدر إشعاع لمن يدعو إلى الله على بصيرة، ولن يضيع الله جزاء العاملين.

قلت: إن جامعة الأزهر تعد الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين ابناً روحيًّا لها، وقد كان الفقيد الكبير يشعر بمكانة الأزهر في نفسه، ومكانته في الأزهر، وعلى صفحات مجلة الأزهر كانت له جولات مباركة، وصولات بارعة، وقف فيها تجاه من يحرفون الكلم عن مواضعه، يريدون أن يطفئوا نور الله بأقلامهم المغرضة، ويأبى الله إلا أن يتم نوره. على صفحات مجلة الأزهر الشريف تصدى لمقاومة حركة ماكرة من حركات الهدم، حين فنَّد بالمنطق الصارم والدليل الحاسم ما جاء في الكتاب المُغرض الذي نشرته مؤسسة فرنكلين الأمريكية، مشتملاً على عدة بحوث ألقيت في مؤتمر عام عقد سنة ١٩٥٣، واشتركت في الدعوة إليه جامعة برنستون ومكتبة الكونجرس، وقد شهده عدد من المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي بين إندونسيا والهند وباكستان وإيران والعراق وسوريا ولبنان ومصر، وقد اختارت لجنة المؤتمر الأمريكي من أبناء الإسلام من ترى فيهم ميلاً إلى مفهومات لا تستقيم، كما اختارت عدداً كبيراً من باحثي الاستشراق ليسد الفراغ الذي تريد أن تملأه في بث الشكوك.

يقول الدكتور محمد محمد حسين في مقدمة «هجومه الراصد»: والناظر في أسماء المشتركين في هذا المؤتمر، ممن اختيرت بحوثهم للنشر، يجد أن بعض هؤلاء المشتركين فيه من الأمريكيين قُسُسٌ يحترفون التبشير، مثل الدكتور ميلر بروز أستاذ الفقه الإنجيلي في جامعة بيل، وكان اتجاهه التبشيري الهدام واضحاً كل الوضوح في دعاواه التي ساقها في بحثه للتشكيك في أسس العقيدة: الإسلامية، كالإيمان بالوحي، والإيمان بنبوة محمد ﷺ، والإيمان

بصـدق القـرآن الـذي أنـزل عليه. ومن هؤلاء المبشرين كذلـك الدكتور هارولدست أستاذ ونائب رئيس قسم الديانات بكلية ووستر بولاية أوهايو، وقـد كان القسيس رئيسـاً لقسم الفلسفـة والأخـلاق بالجـامعـة الأمريكية بالقـاهـرة، وأخذ الدكتور يكشف عن اتجاهات هؤلاء المبشرين ويدل على عداوتهم المغرضة للإسلام من أمثال الدكتور روفائيل باتاي، والدكتور جون كروسويل، والدكتور هارولد إلن، والدكتور تشارلز ماتيور، وكلهم أصحاب دراسات مغرضة تخاصم الإسلام مخاصمة سافرة.

وقد كان في ذكر هؤلاء مع ما شغلوه من مناصب التبشير ما يمنع الثقة في دراساتهم، ولكن الدكتور محمد محمد حسين قد مهد بذلك ليناقش على صفحات مجلة الأزهر آراءهم مناقشة علمية تعتمد على البرهان، وليفضح السر في التبـذير في نفقـات المؤتمـر الباهظة وحفلات التكريم والرحلات، ليتساءل: لأي هدف تنفق هذه الأموال إن لم تكن لبث الشكوك في معتقدات يؤمن بها المسلمـون! ثم ما دخـل القُسُس الأمـريكيين والـدبلومـاسيين الأمـريكيين في مشكلات الإسلام! ثم يكر الناقد الكبير على بحوث هذا المؤتمر ليكشف عُوارها حين يعلن على صفحات مجلة الأزهر أن الجانب الخطير من أهداف المؤتمر هو في الجهود المبذولة لهدم الإسلام أو تطويره أو جعله آلة من آلات الدعاية الأمريكية والغربية، والدعوة إلى النظر من جديد في أمور مقررة لا تقبل الخلاف، مثل ما تحدث به القسيس ميلر بُروز حين طالب بالنـظر من جديد في تجربـة النبوة، وتجربة الدين والمعجزة والصلاة والحياة الآخرة مُنادياً بوضع ذلك كله في معامل علم النفس الحديث، ليكشف عن دوافعه، بل يتطاول فيتحدث عن أسلوب الله في العمل، كما اجتهد هؤلاء في العمل على تضييق دائرة الإسلام، ليصبح مفهومه كمفهوم مصطفى كمال في تركيا، فإذا فرغ الرجل من حديثه قام قسيس آخر ليتحدث عن وجوب تطوير الشريعة الإسلامية، ويبذل جهده في استدراج الأنظار إلى نقاط معينة

في مسائل الحدود والعقوبات يراها غير مناسبة، كما يدعو قسيس ثالث إلى وجوب كتابة التاريخ الإسلامي من جديد، كتابة ترضي المنهج الأوربي.

وقد أحسن الدكتور محمد محمد حسين في مناقشة هذه الأفكار، ووضحها بالمنطق الفاصل، وكشف عن بواعثها الدفينة، وقد عَدَّ المؤتمر الأمريكي ببحوثه وترجمتها إلى العربية في كتاب كبير عملاً تبشيريًّا، وسلسلة من الحلقات الهدامة التي يقوم بها المبشرون في يقظة.

والمبدع في نقد الدكتور محمد محمد حسين أنه يأتي بالدليل الحاسم في قوة، فليست بحوثه ذبذبات عاطفية تعتمد على الضجيج الخطابي، ولكنها ثمرة فكر عاقل، يؤمن بالحجة، ويعتصم بالدليل، فإذا ملأ كفه من الإقناع جاء بوهج العاطفة ليحدث من التأثير البالغ ما يترك هداه في قلوب من يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله! وأحيل الدارس المتتبع إلى المجلد الثامن والعشرين من مجلة الأزهر الصادر في سنة ١٣٧٦هـ الموافقة لعام ١٩٥٦م، ليرى بحوث الدكتور محمد محمد حسين في هذا المضمار ناضجة الثمار شهية القطوف.

الحق أن بحوث الدكتور محمد محمد حسين في محاربة الحركات الهدامة في هذا العصر كانت ضرورة حتمية يوجبها الواقع المعاصر، حيث كان الاحتلال الإنجليزي لمصر مصدراً خطراً لشبهات ظالمة تلحق بالإسلام، وقد وُجد من ذيوله من سار في ركابه عن جهل أو علم، فمنهم من احتضن آراء الاستشراق في نبي الإسلام وفي الشريعة الإسلامية وما رُمِيا بها من تحجر وجحود، وفي التاريخ الإسلامي وما يُشوَّه به من مآخذ تنسب إلى أعلام المسلمين بغياً دون حق، وفي اللغة العربية لغة القرآن، وما رُمِيتْ به من افتراءات صارخة، وصلت إلى حد المناداة بنبذها وهجرها إلى اللغات العامية في شتى ربوع العالم العربي، ولا ننكر أن فريقاً من ذوي الغيرة على الإسلام وشريعته وقرآنه ولغته قد تصدوا لهذا التيار الظالم، فأبْلَوْا أحسن البلاء، نذكر

في طليعتهم محمد عبده، وعبد العزيز جاويش، ومحمد رشيد رضا، ومحمد الخضر حسين، ومحمد أحمد الغمراوي، ومصطفى صادق الرافعي، وشكيب أرسلان، ومحمد فريد وجدي، ومحب الدين الخطيب، وكل هؤلاء متقدمون زمنيًّا عن المرحلة التي أشرق فيها الدكتور محمد محمد حسين، لذلك كان ميدانه الواسع الفسيح، هو رصد الهجوم الصارخ الذي قوبل به الإسلام من أعدائه المستشرقين والمستغربين معاً، ثم تقييم أوجه الدفاع المخلصة التي قام بها هؤلاء السابقون في ميدان الجهاد.

ولا أكتم في نفسي حقًّا حين أذكر أن حماسة الدكتور محمد محمد حسين قد دفعته إلى التشدد العنيف، فأخذ يحاسب نفراً من هؤلاء المجاهدين محاسبة شديدة لأمور يخالف فيها بعض آرائهم، وقد اشتط بعض الشيء في مؤاخذة إمام كبير كمحمد عبده، ومصلح شهير كالأستاذ محمد مصطفى المراغي، وقد نسي - رحمه الله - أنهما يحاربان معه في جبهة واحدة، وأن اختلاف الرأي في أصحاب المعتقد الواحد شيء طبيعي ما دام الحق وجهة الجميع، ولا أدري كيف يحاسب الأستاذ الإمام على موقفه من ثقافة العالم الغربي، ويَعُده خطوة في طريق التنازل، ثم لا يحاسب الشيخ طنطاوي جوهري على هذا الموقف بذاته، وكلاهما يضيء نوره من مشكاة واحدة!

لقد شاء أن يُسْبِل على مآخذ الشيخ طنطاوي جوهري من وجهة نظره ما لم يسبله على ما يراه من مآخذ الأستاذ الإمام! ولعل مرد ذلك يرجع إلى كثرة آراء الأستاذ الإمام وتنوعها، وهو إمام العصر لا مِرَاء، وهو الذي أثبت لأعداء الإسلام أنه دين العقل والحرية والسماحة، وأن ما رَمَوْا به شريعة الإسلام بالجمود والوقوف عند المجتمع البدوي ومجافاتها للحضارة والمدنية هراء مغرض لا قيمة له بالنظر إلى الواقع التاريخي من مد الإسلام، وبالنظر إلى شريعة الإسلام التي تضمنها كتابه الكريم، وسنة رسوله الأمين، كان موقف الأستاذ الإمام أمام أعداء الإسلام كاسحاً مقتحماً، وقد استحق به

شكر المنصفين، ولكن الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين شاء أن يؤاخذه على وجهات نظر تبتعد وتقترب، ولكنها في مجموعها لا تخرج عن دائرة الإسلام الصحيح، وكتب الأستاذ الإمام الشهيرة مثل رسالة التوحيد، والإسلام والنصرانية، وتفسير القرآن، تنادي بسبقه الظافر واجتهاده الأمين... رحم الله إمام العصر، وجزى الدكتور محمد محمد حسين أحسن الجزاء.

أذكر أن أخي الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة كان قد نشر مقالاً تحت عنوان «انقدوا الأعلام ولا تهدموهم» نشره بمجلة التضامن الإسلامي التي تصدر في مكة المكرمة، وقد أشار فيه إلى ما أخذ به الدكتور محمد محمد حسين أعلام الإسلام من مآخذ دون أن يصرح باسم فقيدنا الكبير، وكان من محاسن الصدف أن يقرأ الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين مقال صديقي الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي، وأن يحرص على لقائه بالرياض حين وفد الفقيد العزيز أستاذاً زائراً بكلية الآداب في جامعة الرياض، فحضر إلى كلية اللغة العربية بالرياض، وكان الدكتور رجب البيومي أستاذاً بها، وأفهمه أنه قرأ مقاله، وأنه يشكره على لهجته المخلصة، ثم أتبع ذلك بقوله رحمه الله: إننا في حاجة إلى التشدد وعدم التسامح، وإن التشدد في هذا العصر يقف أمام أمواج عاتية ليصد بها وجه المخاطر، ولا ينكر أن التسامح قد يهدي إلى الحق، ولكن امتداد التسامح يغري المتطاولين، فإذا كان قد لزم جانب الشدة مع أمثال الأستاذين المراغي ومحمد عبده، فهي شدة اليَقِظِ الحذِر الذي لا يفرط في مثقال ذرة، مع اعترافه بما لهما من جهد كريم.

على أن الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله قد لزم جانب الاعتدال المتزن في أكثر ما كتب، وقد صرح في كتابه القيم «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» ٢ / ٢٠١، ط مصورة. بما يدل على بعد نظره، وسعة صدره

حين قال:

«على أن المعركة بين القديم والجديد هي من مظاهر الحركة والحياة في المجتمعات الإنسانية، والعنصران كلاهما لازمان للمجتمع، فالمحافظون يحدون من طيش المندفعين إلى طلب كل جديد طارىء، ومن نزق الذين يجرون وراء كل طريق براق، بما يفقد الحياة ما يلزمها من الاستقرار الذي يحقق الطمأنينة، والتطوريون يحولون بين المحافظين وبين الركون إلى الكسل، ويخرجون الجماعات عما تُصاب به من التبلُّد والجمود والركود نتيجة العكوف على الموروث وتكراره تكراراً آليًّا يعطل التفكير والملكات الإنسانية، وذلك لأن التطوريين يجبرون المحافظين على الدفاع عن أنفسهم، فيحتاجون في هذا الدفاع للتسلح بأسلحة خصومهم، ودراسة ما يستطرفون من مذاهب، في حين أن مهاجمة المحافظين للتطوريين تضطرهم إلى الحد من غلوائهم، وتنبه المجتمع إلى عناصر الضعف والشر فيما يستجلبون، ومن الطبيعي أن يوجد متطرفون بين كل من الجانبين، ولكن البقاء في كل ذلك للصالح دائماً، وللصالح وحده، تلك هي فطرة الله التي فطر عليها الخلق كله، وناموسه الذي لا يتبدل، والذي اقتضى أن يختلط الحق والباطل، وأن تتباين مسالك الناس وتتنوع مذاهبهم وتجاربهم، وهذا التبادل المستمر بين المعارف والتجارب لا يتكشَّف آخر الأمر إلا عن النفع والخير».

هذا القول الكريم يدل على إنصاف الكاتب الكبير، ويدل على اتساع أفقه ورحابة صدره، وهو مصباح كاشف نهتدي به حين نراه يلزم جانب الشدة الحذر مع أناس لهم تاريخهم المخلص وجهادهم الحفيل.

إن الحديث عن مقاومة الحركات الهدامة التي خاض الدكتور محمد محمد حسين غمارها يتطلب مجلداً برأسه، فآثاره الكبيرة في هذا المضمار تتشعب وتمتد وتتسع وتفيض، ونحن في هذا المجال لا نملك إلا أن نشير إلى رؤوس الموضوعات، فنذكر أن شبهات المستشرقين قد وجدت فيه شَمْساً تكشف

ضبابها المتراكم، وأخطر هؤلاء هم الذين يظهرون بمظهر التسامح في دراستهم إذ يخلطون السم بالدسم عن دهاء، فيستطيعون التأثير في القارىء دون أن يدرك خبث الطوية وفساد النية. أما الذين لا يظهرون بمظهر التسامح مثل «الأب لامانس» فالقارىء في مأمن من التأثر بهم، لأن عداءهم الصارخ ينادي بالشطط، ويبرز ما يكنونه من الحقد البالغ والكيد المقيت، ومن الذين يظهرون التسامح ويخفون السم في الدسم المستشرق المعروف الأستاذ الإنجليزي (هـ . أ . جب) الذي أشرف على تأليف كتاب «إلى أين يتجه الإسلام» ليجمع فصولاً تخفي الكيد، فيدعو إلى الحضارة الغربية باعتبارها معجزة الإنقاذ للعالم الإسلامي جميعه، ويرى أن يحمل العالم الإسلامي حملاً على قبول ثقافة أوربا، ويتحدث عن أهمية الصحافة والمدارس والجامعة في الدعوة إلى هذا الحمل، إذ هو في رأسه السبيل الوحيد، ولا سبيل سواه. ثم يعترف الأستاذ (جب) في سرور بأن انتشار المدارس العصرية والصحافة المستنيرة قد ترك في المسلمين أثراً واضحاً جعلهم يبدون في مظهرهم العام وكأنهم لا دِينيُّون، ويعقب على ذلك بقوله: «وهذا هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار» ٢ / ٢٠٩ من كتاب «الاتجاهات الوطنية».

ثم يبدأ المستشرق (ديفيد) في دعوته حتى ينتهي إلى تساؤله إلى أي مدى أصبح العالم الإسلامي غربيًّا؟ وقد استطاع الدكتور محمد محمد حسين أن يكشف دعواه البغيضة بمنطق حازم، ولو عاش الأستاذ جب إلى هذا العهد لعرف أن الإسلام أقوى صخرة من أوهامه، وأن المستقبل الذي كان يرقبه له قد عاد عليه بالثبات والاستقرار.

أما الشرقيون من ذوي النزعات الغربية فقد وجدوا من الدكتور محمد محمد حسين رجلاً صلباً لايستكين ولا يهدأ، إذ فضح ما أكنوه من بغضاء حين هتفوا بحضارة الغرب، وانتبذوا روح الشرق، وفي طليعة هؤلاء الأستاذ

سلامة موسى الذي سجل عليه الدكتور محمد محمد حسين قوله: «إن الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات كالمرض، ولهذا المرض مضاعفات، فنحن لا نكره الغربيين فقط، ولا نتأفف من حضارتهم فقط، بل يقوم بذهننا أن نكون على ولاء للثقافة العربية، فندرس من كتب العرب، ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب، كما يفعل أدباؤنا المساكين من أمثال المازني والرافعي، وندرس ابن الرومي، ونبحث عن أصل المتنبي، ونبحث في علي ومعاوية، ونتعصب للجاحظ، وليس علينا للعرب أي ولاء، وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب وبعثرة لقواهم، فيجب أن نعودهم الكتابة بالأسلوب العصري الحديث لا بأسلوب العرب القديم».

وهذه النصوص وحدها كافية لأن تكشف عن سريرة صاحبها، وقد لخص الدكتور محمد محمد حسين آراءه الخطيرة لتنطق بنفسها عن نفسها دون تعليق، وكذلك فعل مع صاحب «مستقبل الثقافة في مصر» حين ذكر قوله الصريح: «إن سبيل النهضة واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم، لنكون لهم أنداداً، ولنكون له شركاء في الحضارة خيرها وشرها حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب».

وقول صاحب مستقبل الثقافة: إن علينا أن نأخذ ما يكره من حضارة أوربا وما يعاب قول لا يجد إلا من يضعه موضع التعجب الشديد، وهو في الوقت نفسه يدل على شطط لا يصدر من باحث متّئد، إذ كيف يعترف الباحث بأن بهذه الحضارة ما يكره وما يعاب ثم يدعو إلى الأخذ بهما في حماسة خطابية تبلغ أقصى درجة الانفعال، وقد كان الدكتور محمد محمد حسين لبقاً حين قارن قول المؤلف عن الفتح العربي لمصر بما قاله عن الفتح اليوناني، حيث أنكر الأول وانتقصه، وادعى مقاومة المصريين له، على حين رحب بما سماه الفتح اليوناني، وجعله مفخرة من مفاخر مصر. ثم كشف الدكتور محمد

محمد حسين عن نية صاحب «مستقبل الثقافة» حين أخذ يلف ويدور حول الحكومة اللادينية في مصر، إذ يسميها الحكومة المدنية، وينتهي الدكتور محمد محمد حسين إلى قوله عن صاحب «مستقبل الثقافة» في مصر:

«وواضح من أسلوب المؤلف من المفاضلة بين أن تكون مصر دولة إسلامية أو تكون دولة لا دينية، ومن حرصه على أن يكتم رأيه ولا يصرح به، أنه لا يذهب مذهب المتمسكين بالإسلام بوصفه من مقومات الوطنية» ثم تابع الدكتور نقض آراء صاحب «مستقبل الثقافة» بما يدل على تمكن ورسوخ، وآية الدكتور محمد محمد حسين في ذلك أنه صاحب قلم وعاطفة، وبهما يبلغ الذروة في التأثير.

ولا نستطيع أن نلخِّص حياة قلم خصيب مثمر، في مثل هذا البحث السريع، ولكننا نلفت النظر إلى موضوعات قيمة عالجها بإشباع وإقناع، ومن هذه الموضوعات ما يلي:

١) الدعوات العالمية التي تلبس الزي الإنساني، وتهدف إلى هدم الإسلام، مثل: الماسونية والبلشيفية ودعوى التقريب بين المسيحية والإسلام.

٢) هدم الأخلاق وزلزلة المجتمع الإسلامي بإيثار تقاليد أوربا في التبرج، والصور الخليعة، والمسرح الماجن، والقصص المكشوف، وسائر أوبئة الانحلال الخلقي.

٣) إضعاف الإيمان بالغيب والثواب والعقاب يوم الجزاء، والدعوة إلى التحرر من قيود الدين استجابة لرغائب الشهوات.

٤) هدم اللغة العربية ومحاولة استبدال اللغات الإقليمية الدارجة بها ونشر كتب وروايات باللغات العامية في كل بلد إسلامي عربي.

٥) إهمال الأدب العربي القديم، ورميه بالتحجر والقصور والتخلف

العاطفي والذهني.

ولكل موضوع من هذه الموضوعات بحثه المستفيض ومجاله الشاسع، ونحن ندعو طلاب الدراسات العليا إلى كتابة رسالة جامعية تشمل جهود هذا الداعية الناقد المتحرر، ليعلم قارئو اليوم كيف حمل الراية الإسلامية عن عقيدة حارة، وإخلاص عميق.

﴿يا أَيَّتُها النفسُ المطمئِنَّةُ ارجِعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً فادْخُلي في عبادي وادخُلي جنَّتي﴾.

والسلام عليكم ورحمة الله.

الدكتور/ إبراهيم محمد إسماعيل عوضين.

* * *

الإسلام والحضارة الغربية
من وجهة نظر الدكتور/ محمد محمد حسين

في كتابه «الإسلام والحضارة الغربية»[1] يرى الدكتور/ محمد محمد حسين أن المجتمع الإسلامي في علاقته بالحضارة الغربية مر بمراحل:

(١) المرحلة الأولى:

وقد بدأت هذه المرحلة الأولى في أول أمرها بعيدة عن أن تمس الإسلام، كان الحكام والمفكرون في هذه المرحلة يريدون أن يأخذوا بالأسباب التي تؤدي إلى نهضة المجتمعات الإسلامية وقوتها، وقد رأوا في بعض نواحي الحضارة الغربية ما يعينهم على هذا، ففي مصر مثلاً رأى محمد علي أن نهضة البلاد تقوم على جيش منظم مدرب، ولهذا استقدم الخبراء من أوربا، وأرسل البعثات، وكذلك فعلت بعض الدول الإسلامية مثل تركيا وتونس وإيران.

كان الهدف في هذه المرحلة الأخذ بأسباب القوة، والارتفاع بمستوى الحياة في العالم الإسلامي. وفي هذه المرحلة كان كل تجديد أو اقتباس من الحضارة الغربية يوزن بميزان الإسلام، فما وافق الإسلام أُخذ به، وما خالفه عُدل عنه. وكان من أوائل من يمثلون هذا الاتجاه رفاعة الطهطاوي المصري في كتابه «تخليص الإبريز» وخير الدين التونسي في كتابه «أقوى المسالك».

(١) النصوص الواردة في هذا المقال وأرقام الصفحات يرجع فيها إلى كتاب الدكتور/ محمد محمد حسين وهو «الإسلام والحضارة الغربية» طبعة مؤسسة الرسالة ١٩٨١ بيروت.

كان الطهطاوي وزميله التونسي يتساءلان كلما أعجبهما شيء من أنظمة الغــرب أو مظاهــره الحضـارية: أهـذا مما يقبله الإسـلام ويسمـح بنقله واستخدامه في المجتمعات الإسلامية؟ ويعلق الدكتور/ محمد محمد حسين على هذا بأنهما كانا يودان لو أن ذلك كان ممكناً. فهما أي الطهطاوي والتونسي ـ كانا في نظره ميّالين إلى التسويغ والتماس الأدلة والنصوص الشرعية عن كل طريق ممكن ليجيزا بعد ذلك ما يريدان إدخاله من أنظمة الغرب الحضارية.

فالفكرة الإسلامية هنا كانت واضحة في حركتهما واتجاههما نحو الغرب، ومع أن الطهطاوي يعترف صراحة بأن «الفرنساوية على الإطلاق ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه» ويذكر الطهطاوي عن هؤلاء الفرنساوية أنهم لا يفهمون الحكمة فيما شرعته الأديان من العبارات، ويرونها ضرباً من البدع والأوهام (ص ٢٤).

هذا هو رأي الـطهطاوي في موقف الفرنساوية من الدين المسيحي وانحرافهم عنه، ومع ذلك نراه يدعو إلى وضع مدونة قانونية شاملة على نمط المـدونـات الغـربية الحـديثـة، ويدعـو كذلك إلى «تنظيم أحكام للمعاملات تلائم العصر، والتماس الطريق إلى الاقتباس من نظم الغرب التي قامت عليها المصارف والشركات»، وهنا نرى الشيخ يتناقض مع نفسه فبينما يصرح أن الفرنساوية ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم، وأنهم لا يعتبـرون الدين في حلال أو حرام نراه يدعو إلى الأخذ عن أنظمتهم وقنوانينهم، بل إن إعجابه بالحضارة الغربية يذهب به إلى حد التسوية بين المفـاهيم الإسلامية وبين ما عند هؤلاء «الفرنساوية» من أنظمة ومفاهيم أبدعتها عقول قوم يقول عنهم «ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم».

ويبـدو إعجـاب الـطهطاوي الشديد بحضارة الغرب في حديثه عن القانون الذي يمشي عليه الفرنساوية الآن ويتخذونه أساساً لسياستهم، وهو

القانون الذي ألفه ملكهم المسمى لويز الثامن عشر، ولا يزال متبعاً عندهم ومرضيًّا لهم، وفيه أمور لا ينكر ذوو العقول أنها من باب العدل، وإن كان غالب ما فيه ليس من كتاب الله تعالى ولا من سنة رسوله ﷺ «وهنا يقول الدكتور/ محمد محمد حسين: إن الطهطاوي بهذا قد مهد من حيث يدري أو من حيث لا يدري لقبول التشريع الوضعي الذي يستند إلى العقل على قصوره» (ص ٣١).

تلك كانت المرحلة الأولى في علاقة المسلمين بالحضارة الغربية، فيها التمس المسلمون الوسائل للإفادة من حضارة الغرب طلباً للقوة والنهضة، وقد يكونون على صواب أو على خطأ في نوعية الوسائل والأساليب التي استخدموها، ولكنهم على كل حال كانوا في هذه المرحلة يبحثون في الإسلام عن سند يستندون إليه فيما يأخذون من ألوان تلك الحضارة.

(٢) المرحلة الثانية:

بدأت في نهاية القرن التاسع عشر، حين عظم شأن الاستعمار الغربي، وسيطر على كثير من بقاع العالم الإسلامي، وفي هذه المرحلة تدفق الأجانب على العالم الإسلامي وراء الجيوش الغازية، وأقاموا فيه، ونشروا بين المسلمين أنماطاً من الحياة الأوربية، وطرائق من التفكير الغربي، لم يكن للمجتمعات الإسلامية عهد بها.

وتدخلت الدول المستعمرة بنفوذها في توجيه أنظمة البلاد الإسلامية نحو الحضارة الغربية، فالتعليم والثقافة والفنون أخذت كلها تتجه إلى الحضارة الغربية، وسارعت البلاد الإسلامية إلى إرسال المبعوثين ليتلقوا في بلاد الغرب العلوم المختلفة، ومع العلم كانوا يتلقون التوجيه والعادات الأوربية وأنماط الحياة الغربية الاجتماعية والفكرية، وتدفقت البعثات على أوربا في كل مجال من مجالات العلم حتى العلوم العربية والدراسات الإسلامية، وأصبح التعليم والثقافة في بلاد العالم الإسلامي يجري على نسق غربي خططه

الاستعمار ونفذه أعوانهم في تلك البلاد، وبهذا ظهر ما يسمى التغريب westernization أي: تحويل العالم الإسلامي نحو الغرب في كل شأن من شؤونه.

وهنا نرى أن هدف الاستعمار من هذا التغريب لم يكن بطبيعة الحال خير البلاد الإسلامية أو النهوض بها، ولكنه كان يقصد من وراء هذا التغريب إلغاء الحواجز التي تفصل بين المسلمين والمستعمرين، هذه الحواجز التي تتمثل في الدين واللغة والعادات والتقاليد، لأن بقاء هذه الحواجز من شأنه أن يعمق الكراهية عند المسلمين للاستعمار، وأن يضاعف من مقاومتهم للمستعمرين، ويزيد من صمودهم. والإسلام على وجه الخصوص وراء حركة المسلمين الحضارية ووراء قوتهم وترابطهم، ولهذا كانت هذه الشعوب الإسلامية كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، وكلما وقع حادث في بلد من بلاد المسلمين اهتزَّ له المسلمون في أنحاء الأرض، وكثيراً ما كان المسلمون يهملون النزعات القومية والاتجاهات المحلية إعلاءً لشأن الرابطة الإسلامية واعتزازاً بها.

وفي هذه الوحدة الإسلامية يكمن الخطر على الاستعمار ومصالحه، ومن هنا كان على الغرب أن يخطط ويدرس ليقيم بين المسلمين فواصل وحواجز تباعد بينهم، وبقدر ما تباعد هذه الفواصل بين المسلمين بقدر ما يسهل أمرهم على الاستعمار وتسهل عملية تغريبهم وتذويبهم في الحضارة الغربية، وإخراجهم في نهاية الأمر من ذاتيتهم الإسلامية. ولكي يحقق الغرب هذا رتب مجموعة من برامج التغريب، فالتعليم، والأدب، والفن، وغيرها برامج صالحة في تحقيق التغريب.

وقد تنبه كرومر إلى هذا في مصر، فدعا إلى العمل من أجل بناء الجسور التي تصل بين المصريين والإنجليز، وتمثلت هذه الجسور في إعداد جيل من المصريين يتفاهم مع الإنجليز، ويرعى مصالح إنجلترا في مصر، وكان إنشاء

كلية فيكتوريا بالإسكندرية سبيلاً لتربية هذا الجيل الجديد من المصريين أو غيرهم ممن تعلموا فيها، ولم يخفِ اللورد لويد المندوب السامي في مصر بعد ذلك هذا الهدف، إذ قال بصراحة في احتفال للخريجين في هذه الكلية ما معناه: إن هؤلاء الخريجين لن يمضي عليهم وقت طويل حتى يكونوا قد تشبعوا بوجهات النظر البريطانية، بفضل الروابط التي نشأت بينهم وبين معلميهم البريطانيين، وما أُشرب في نفوسهم من حب العلم والثقافة البريطانية.

(٣) العامل الثالث:

إلى جانب هذا جد عامل ثالث في المجتمعات الإسلامية، كان يعمل جاهداً لتقوية صلات المجتمعات الشرقية بالحضارة الغربية، ويتمثل هذا في المسيحيين العرب، وأخصهم مسيحيو الشام. وكان هؤلاء المسيحيون بطبيعة الحال لا يشاركون المسلمين أحاسيسهم الدينية، ولا يتحمسون للقضايا والأفكار الإسلامية، ومن ثم فقد تعلقوا بالعلمانية الغربية وفصل الدين عن الدولة، ليحلوا أنفسهم من الالتزام بالمفاهيم الدينية التي تسود المجتمعات الإسلامية.

يتصل بكل هذا أمران مهمان في نظر المرحوم الدكتور/ محمد محمد حسين: أولهما، ضرورة النظر في إعادة تقويم الرجال، فمن القيادات الإسلامية التي قادت العالم الإسلامي وتزعمت توجيه الفكر فيه رجال لم يعن المسلمون بتمحيص أمرهم والنظر الدقيق في شأنهم، لأن الهالة المضيئة التي أحيط بها هؤلاء الرجال، وتغنيِّ وسائل الإعلام والإعلان بذكرهم في كل آن، ألغت عند الجماهير الملكة الناقدة في العقول، فلم يجد الناس فرصة للتوقف والسؤال: من هم هؤلاء الرجال؟ وما حقيقة أمرهم؟ وعلى أي أساس نالوا هذا التقدير في العالم الإسلامي؟

يقول الدكتور/ محمد محمد حسين فيما يتصل بهؤلاء: «نحن حين ندعو

إلى إعادة النظر في تقويم الرجال لا نريد أن ننقص من قدر أحد، ولكننا لا نريد أن تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناس يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل خطأ» (ص ٤٩)، ومن هؤلاء الرجال الذين يجب أن يعاد تقويمهم من جديد في نظره جمال الدين الأفغاني، فالصورة الشائعة بين الناس عن الأفغاني تخالف في رأي محمد محمد حسين حقيقته، وهذه الصورة التي ظهر بها أمام الناس واكتسب على أساسها الثقة والزعامة بين المسلمين «كان وراءها قوى ومؤسسات قادرة ذات نفوذ» (ص ٦١).

ويرى محمد محمد حسين أن أمر الأفغاني مريب: بدأ فعُمِّي على الناس أصله ونسبه، ادعى أنه أفغاني وهو في الحقيقة إيراني، ووصل نسبه برسول الله ﷺ ولم يقم على هذا دليل، وأذاع بين الناس أنه سني وظهر أنه شيعي (ص ٦٢)، وكان أكثر نشاطه سريًّا، وحيثما حل كان يؤسس الجمعيات السرية، ففي مصر مثلاً أنشأ جمعية مصر الفتاة السرية، وأصدر لها صحيفة تنطق باسمها، ولم يكن بين أعضائها مصري واحد، بل كان أغلب أعضائها من شبان اليهود (ص ٦٣). وفي الهند أنشأ جمعية العروة الوثقى السرية. ثم إنه أنشأ محفلاً ماسونيًّا تابعاً للشرق الفرنسي، ضم إليه عدداً كبيراً من أصحاب النفوذ في مصر (ص ٦٤).

وليس المهم - كما يرى الدكتور/ محمد محمد حسين - تلك الدعوات والآراء، التي كان يعلنها ويذيعها جمال الدين بين الناس، لأن قادة الجمعيات السرية كانوا ومازالوا يعلنون على الناس كل سليم وجميل، ولكن المهم هو ما يدور في عقول أولئك الذين يديرون أمر هذه الجمعيات مما لا يعلمه غيرهم حتى من أعضاء هذه الجمعيات.

ثم إن جمال الدين - كما يذكر الفقيد الكبير الدكتور/ محمد محمد حسين - كان قد غمس يده في الدم الحرام، فهو الذي حرض على قتل ناصر الدين شاه إيران الذي طرده من إيران في سنة ١٨٩١م (ص ٦٥)، كما أنه فكر في

اغتيال الخديوي إسماعيل ليخلفه ابنه توفيق الذي كان جمال الدين قد نجح في ضمه إلى المحفل الماسوني.

ويتساءل الدكتور/ محمد محمد حسين فيم كان تنقل جمال الدين السريع المفاجىء من مكان إلى مكان بين إيران وأفغان والهند والحجاز ومصر وتركيا وفرنسا وإنجلترا والنمسا وروسيا؟ أم يسأل أحد من أين كان ينفق على كل هذه الرحلات؟ ثم فيم كان تستره وتخفيه، فهو أحياناً يتخفى في الملابس العربية، وأحياناً يتستر تحت رداء رجال الدين من الشيعة، وأحياناً أخرى كان يرتـدي الرداء التركي. فيم كان كل هذا؟ وما هذا الخليط من اليهود والنصارى الذين يجتمعون حول الرجل.

الأمر الثاني الذي ينبه محمد محمد حسين الأذهان إليه بعد إعادة تقويم الرجال هو ما يطلقونه من حين إلى حين من الدعوة إلى تطوير الإسلام لكي يوافق الحياة العصرية التي يحياها الناس في هذه الأيام، ومقصودهم من هذا أن يحرفـوا تعاليم الإسلام أو يتعسفوا في التفسير والتأويل لكي يخرُجوا في النهاية بآراء واجتهادات تقرب بين الإسلام وبين ما يريد الغرب إذاعته بين المسلمين من أفكار ونظم.

وطـرق الاستعمار إلى تغريب الشعوب الإسلامية كثيرة متشعبة، منها تدعيم العصبيات الإقليمية، والتـأكيد على المعـاني الـوطنية وحـدها دون الإسلامية، وصبغ الإسلام بصبغات وطوابع محلية تمهيداً لفصم الروابط التي تربط المسلمين في أنحاء العالم الإسلامي، ولقد ظهر ما يسمونه في بعض كتاباتهم بالإسلام الهندي أو الإسلام الإيراني أو الإسلام التركي، وكأنهم بهذا يريدون أن يقولوا للمسلمين إن الإسلام في قطر من الأقطار يختلف عنه في الأقطار الإسلامية الأخرى، ويبذروا بهذا بذور التفرقة والاختلاف بين المسلمين في الأقطار المختلفة.

ومن طرائقهم في التغـريب اهتـمامهم بنشر ألـوان معينة من الثقافة،

كاهتمامهم بالآثار القديمة الفرعونية دون غيرها، ويشير الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» إلى الصهيوني روكفلر الذي تبرع بعشرة ملايين من الدولارات لإنشاء متحف للآثار الفرعونية، وروكفلر كما هو معروف يهودي الأصل ومن غلاة الصهيونية، فما هي الأسباب الخفية وراء اهتمام روكفلر بالآثار الفرعونية وحدها؟

ويورد المرحوم الدكتور/ محمد محمد حسين في كتابه وجوهاً أخرى لأنشطة الغرب في مجال التغريب والنيل من الإسلام ومحاولة إذابة المجتمعات الإسلامية في المجتمعات الغربية، ويشير بشيء من التفصيل إلى المؤتمرات التي يعقدها الغرب، ومن مؤتمراتهم ذلك الذي عقد في سنة **١٩٥٣**م بجامعة برنستون الأمريكية، ويلفت النظر إلى أسماء المشتركين في هذا المؤتمر: من هم؟ إنهم قسس يحترفون التبشير من أمثال الدكتور/ ميلر بروز، والدكتور/ هارولد سميث، أو رجال من ممثلي وزارة الخارجية الأمريكية الذين يخضعون لتوجيهاتها السياسية.

ويجب عند الدكتور/ محمد محمد حسين، أن يتنبه المسلمون إلى أن الغرب فيما يعقده من مؤتمرات أو يؤلفه من مؤلفات إنما يسعى إلى أمرين:

١) إن هذا النشاط الثقافي موجه لخدمة الأغراض السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحمي المصالح الأوربية عامة والأمريكية خاصة.

٢) إن الأفكار والخطط التي تقترح في مثل هذه المؤتمرات والمؤلفات ترمي إلى محو «ما استقر في نفوس المسلمين من أن للإسلام طابعاً ثابتاً وصلباً وقيماً محدودة مرسومة يجتمع عليها المسلمون من ناحية ويتميزون بها عن غيرهم من ناحية أخرى». (ص **١٥٣**).

وهذه الخطط التي يعرضونها في مؤلفاتهم أو مؤتمراتهم إنما يُراد بها زعزعة هذا الارتباط الوثيق بين المسلم ودينه، وفي كل كتاب من كتبهم،

أو مؤتمر من مؤتمراتهم، يقدمون من الأبحاث ما يزيد الفجوة اتساعاً بين المسلم ودينه، حتى تؤدي كثرة الطرق على أذهان المسلمين بهذه المعاني والأفكار إلى استساغتها في نهاية الأمر، وتناسي موقف الإسلام منها.

وبهذه الأساليب يتعاون الشرق الشيوعي والغرب الاستعماري الصهيوني في مهاجمة الدين: الأول ينكره ويصفه بأنه خرافة، والثاني يريد أن يطوره ليقحم عليه من المفاهيم الغربية ما يبعده عن حقيقته وجوهره.

والخلاصة: إن عملية التغريب التي يقوم بها الغرب لا تشمل مجالاً واحداً ولا جزئية واحدة، ولكنها تتناول ما عند المسلمين في كل مجالات حياتهم، في الدين، اللغة، الأدب، والفن، والقوانين... إلخ. ومن الخطر في رأي الدكتور/ محمد محمد حسين أن ينظر المسلم إلى هذه الأمور نظرة جزئية، فيرى رجال الدين محاولاتهم ضد الدين وحده ولا يرون غيرها، وينظر رجال الأدب إلى هذه المحاولات من زاوية الأدب وحده، وهذه النظرة الجزئية شديدة الخطورة، لأن هذه الجزئيات هي في نظر الغرب عناصر تجتمع كلها بعد ذلك في كليٍّ عام واحد لتشمل المجتمع الإسلامي بكل ما فيه.

هذا أهم ما جاء من آراء في كتاب الدكتور/ محمد محمد حسين عن الإسلام والحضارة الغربية، والله أسأل أن يجزل له الثواب والمغفرة بقدر ما قضى من حياته في خدمة الإسلام، وأن يجعل من أبنائه وتلاميذه خير خلف لخير سلف بالإيمان بالله، والدعوة الصالحة، والكلمة الطيبة، والسلوك القويم.

والسلام عليكم ورحمة الله.

الدكتور/ طه السيد ندا.

* * *

محمد محمد حسين وحركة الترجمة في العصر الحديث

إن موقف محمد محمد حسين في الدفاع عن قضايا الإسلام والعروبة في مواجهة الذين يجهدون في حجب هذه القضايا الأساسية ـ بوصفها تراثاً يتعلق بالماضي لم يعد لنا به شأن في عصرنا الحديث الذي سادت فيه مفاهيم الغرب وحضارته ـ موقف ثابت أصيل يمتد إلى كثير من خبيئات حياتنا الثقافية، يستخرجها كما يستخرج الخبير الحية المؤذية من جحرها، ليتقي الآمنون نفثة سمها حين تلدغ في الخفاء.

ومن بين هذه الخبيئات الخبيثات التي تسري في حياتنا الثقافية ونحن في غفلة حقيقية عنها، حركة الترجمة التي بدأت منذ تفتح نهضتنا الحديثة في القرن التاسع عشر لتزودنا بما نجهله من علوم الغرب وآدابه، حتى يمكننا أن نستدرك ما فاتنا في عصور الجهل والتخلف، لنمضي قدماً في ركب التطور، متماشين مع الحضارة الغربية في إيقاعها السريع.

وما من شك في أن حركة الترجمة منذ بدايتها كانت توجهها عوامل كثيرة، أهمها الحاجة إلى المادة المترجمة، ولكن من المؤكد عدم وجود خطة ثابتة واضحة المعالم تحدد الأهداف المرجوة من الإقبال على الترجمة في مجالات المعرفة المختلفة، وترتب الأولويات حسب ما تدعو إليه الحاجة الفعلية الراهنة والمستقبلية، فظلت حركة الترجمة خاضعة لجهود فردية، تتحكم فيها الأهواء والأذواق والميول والاتجاهات، الأمر الذي جعل الترجمة ميداناً يختلط فيه الحابل بالنابل، والعالم بالجاهل، والجاد بالهازل، وذو النزعة البانية بذي

النزعة الهدّامة.

وتعاقبت على أمر الترجمة جهات حكومية في مصر وهيئات نشر بها، كما تولت أمرها جهات مسؤولة عربية وأجنبية. وعندئذ وضعت خطط مرسومة للترجمة، ولكنها لم تخل من غفلة أن كان القصد بريئاً، وزخرت بالسموم التي تسري في الأفكار أشد من سريانها في الدم حين التوت المقاصد التي تراد لهذه الأمة العربية المسلمة.

وقد عملت بضع سنوات في الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، ووكل إلي أمر الإشراف على التأليف والترجمة، ولكن وضع خطتها كان بيد اللجنة الثقافية التي يرأسها الدكتور طه حسين، وكان قد وجهها إلى ترجمة مسرحيات شكسبير التي سبقت ترجمة معظمها منذ سنوات عديدة، ثم وجهها في أثناء وجودي إلى ترجمة آثار راسين وجوته. وقد استطعت بعد جهد عنيف أن أوقف هذا المشروع الجديد، ليس بسبب اعتراضي على ترجمة هذه الآثار نفسها، بل لإيماني بأن هدف جامعة الدول العربية من الترجمة يختلف تماماً عن هذا الاتجاه الذي تسير فيه، وأن من واجبها أن تترجم ما تحتاجه الأمة العربية في ميدان العلوم والآداب من المصادر الرئيسية التي لا تنهض بعبئها دور النشر التي تتحكم في إنتاجها النظرة التجارية.

وكان قد سبق وجودي في الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ظهور عدد من الكتب المترجمة التي أعانت على اختيارها الغفلة إذا أقصينا التهمة عن النيات والمقاصد، وأذكر أن المغفور له أستاذنا الدكتور محمد محمد حسين قد هاله ما عرضته عليه من أمر هذه الكتب في أول زيارة له بمكتبي في الجامعة العربية، وقد أهديته قدراً من هذه الكتب، فعكف عليها، واستخرج منها سمومها ليعرضها على ذوي البصيرة والفهم في مقاليدنشرهما بمجلة الأزهر، ثم عرض للترجمة في مقالات أخرى بحيث أصبح له موقف متكامل إزاء حركة الترجمة في عصرنا الحاضر، ينبغي أن نوضحه وفاء لجهده

في تنقية حياتنا الفكرية من أفعوان التغريب الذي يستهدف محو شخصيتنا الإسلامية والعربية.

ونـراه في بداية موقفه يوضح ما ينبغي أن تتوخاه هيئة عربية كاللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية في اختيار الكتب التي تنفق أموال العرب على ترجمتها فيقول: «لا شك في أن الميزة التي ينبغي أن تُراعى في اختيار هذه الكتب هي مصلحة العرب، وذلك باستكمال ما ينقصهم، وتدارك ما فاتهم مما سَبَقَ إليه غيرهم، فكان سبقه فيه سبب تفوقه وسيادته، وكان تخلفنا فيه سبب ضعفنا واستعبادنا، ولا شك في أن العرب أنفسهم هم أقدر الناس على إدراك ما يصلحهم، وهم أحرص الناس عليه، فليس من المعقول مثلاً أن نكل أمر هذا الاختيار إلى إحدى دول الاستعباد الغربي، ثم نطمع أن يرشد خبراؤهم العرب مخلصين إلى ما ينفعهم. ومن الواضح أني حين أتكلم عن الغرب أعني الغرب كله غربية وشرقية، الذين استغلونا واستعبدونا في الأمس الغابر ولا يزالون، والذين يطمعون في استغلالنا واستعبادنا في الغد القريب أو البعيد، والذين يغزون أسواقنا ويغزون عقائدنا».

ولم يكن محمد محمد حسين في استبعاده استشارة علماء الغرب فيما ينبغي أن يترجمه العرب من الكتب متجنياً، بل استند إلى ما أعلنته جامعة الدول العربية نفسها في نشرتها الثقافية التي تتضمن نشاطها فيما بين عامي ١٩٤٦، ١٩٥٦ إذ تقول: «كذلك اتفقت الإدارة الثقافية بعد موافقة المكتب الدائم على أن تتولى نشر بعض الكتب الهامة المترجمة بمعرفة القسم الثقافي بالسفارة الأمـريكية» ثم تقـول: «واتصلت الإدارة الثقـافية ببعض الهيئات العالمية المختصة، وحصلت منها على كشوف بأسماء الكتب التي تراها تلك الهيئات داخلة في إطار هذا البرنامج». والهيئة العالمية المقصودة هي اليونسكو، تلك التي اعتقد محمد محمد حسين دائماً بسيطرة الصهيونية العالمية الهدامة عليها، كما هو الشأن في أكثر مؤسسات الأمم المتحدة.

ما الـذي ينبغي أن يترجمـه العرب إذن باختيارهم ليسهم في تطورهم العلمي والفكري، وأين محمد محمد حسين ليوضح هذا الأساس المهم الذي ينهض عليه البنـاء، قبل أن يتعرض لهدم ما أشار به خبراء الغرب الذين التوت بهم المقاصد فيقول: «إن العرب لم يُغلبوا عن ضعف في الفلسفة ولا الآداب ولا التاريخ، ولكنهم غُلبوا وضربت عليهم الذلة لأنهم متخلفون في العلوم التجـريبية المـادية بكـل فروعهـا، الكيميائية والطبيعية والميكانيكية، النـظرية منها والتطبيقية، غُلبوا لأنهم لا يملكون من المصانع ومن أدوات القتال ما يناهضون به عدوهم وما يتحررون به من سجنه الاقتصادي الذي يسخرهم فيه لجمع الثروات له كما يسخر العبيد، ثم يحاربهم بهذه الثروات نفسها، ويشتري بها من رجالهم من يقوم على حراسة هذا السجن الكبير».

ويرى محمد محمد حسين أن العرب لن يبلغوا درجة الأستاذية في هذه العلوم الجديدة التي أذلَّهم عدوهم بتفوقه عليهم فيها إلا إذا أصبحت هذه العلوم ملكاً لهم، وهم لا يملكون هذه العلوم ولا يحسون أنها علوم عربية إلا إذا قرؤوها بالعربية وكتبوها بالعربية، وسيظلون يحسون أنهم غرباء عليها وأنهم متطفلون على أصحابها طالما ظلوا يقرؤونها ويكتبونها بغير لغتهم.

وهو بهذه المقولة إنما يضع أساساً مهماً لما يعاد إثارته هذه الأيام بالنسبة لترجمة العلوم وتدريسها بالعربية في الكليات العملية، ولعل الذين يتمسكون ببقاء هذه العلوم في لغاتها الأصلية يدركون عمق هذه النظرة التي تجعلهم يملكون هذه العلوم بدلاً من أن تملكهم، بشرط أن يهيّأ جهاز منظم للترجمة يواكب كل جديد في هذه العلوم، كما يحدث في الدول الأخرى التي لا تتكلم الإنجليزية، تلك التي صارت لغة العلم الحديث.

وربما ذهب محمد محمد حسين بعيداً في مطالبته بقصر الترجمة على العلوم التجريبية والرياضية وحدها دون الأدب والتاريخ والتربية والفلسفة وغير ذلك من الثقـافات الإنسانية، ولكن ما دعاه إلى ذلك أمران: الأول ما رآه من

فوضى وسوء اختيار في مجال ترجمة الآداب والعلوم الإنسانية، والثاني حرصه على وجود الشخصية العربية المسلمة لهذه الأمة التي أضلها عن شخصيتها المستعبدون وأذنابهم.

واختـار محمـد محمد حسين نموذجاً من الكتب التي رشحتها السفارة الأمريكية للترجمة، وهو كتاب «مختارات من إمرسون» وقد وجد فيه ثناء على اليهودية واليهود تصريحاً وتلميحاً، في مثل إشارته إلى يوم السبت الذي يسميه «يوم الدين» وفي مثل قوله: «إني لأتطلع إلى الساعة التي يستلهم فيها الغرب كل ذلك الجمال العلوي الذي افتتنت به أرواح أولئك الشرقيين، وبخاصة أولئك العبريين الذين تحدث الأنبياء من خلال شفاههم لكل زمان».

ويرى محمد محمد حسين أن إمرسون يهدم الدين والتدين من جذوره تحت ستار الدعوة إلى الحرية وإلى استقلال الشخصية، وأنه يستدرج السذَّج من القراء وضعاف الإيمان بالثناء على موسى وعيسى عليهما السلام، ولكنه يزعم لهم أن الدين يتجدد دائماً، وأن الأنبياء كانوا ولا يزالون، ولذلك فهو يسمي المسيحية التي أنزلت على المسيح عليه السلام «المسيحية التاريخية»، ويهاجم المسيحية في عدة مواضع هجوماً قاسياً، ثم ينتهي به الأمر إلى هدم كل الديانات، باعتبار أن الوحي ظاهرة مألوفة تتكرر في كل زمان ومكان، وهـو يقـرن رسـالات الأنبياء بآراء الفلاسفة والكتاب وأصحاب المذاهب الضالة، وهو يدعو إلى الحرية التي تقوم على الغلو المفرط في الغرابة بحيث يسمح لكل إنسان أن يبني لنفسه عالماً مستقلاً بقيمه لا يستوحي فيه غير خياله وأوهامه. ومن أمثلة آياته الهدامة قوله: «وإني أنصحكم قبل كل شيء أن تسيروا وحدكم، وأن ترفضوا النماذج الطيبة حتى تلك التي يقدسها الناس في خيالهم»، ويقول: «من أراد أن يكون رجلاً ينبغي أن ينشق على السائد المألوف.. لا شيء في النهاية مقدس سوى نزاهة عقلك»، ويتعقب إمرسون شعائر الدين بالتسفيه والسخرية اللاذعة، فالصلاة عنده وهم ليس فيه من

الشجاعة أو الرجولة بمقدار ما فيه من القداسة.

كذلك اختار محمد محمد حسين من الكتب التي أوصت هيئة اليونسكو بترجمتها «قصة الحضارة» لول ديورانت، وقد كشف في نقده لهذا الكتاب عرض ول ديورانت لتاريخ اليهود عرضاً جذاباً مشرباً بالعطف والمحاباة، وأنه اعتمد اعتماداً شديداً على المؤرخ اليهودي يوسيفوس، في حين أنه وجه تهماً بذيئة تمس شخص محمد والمسيح عليهما السلام، بل نراه يتساءل: أين كان المسيح قد وجد حقًّا، ويثير حول الأناجيل مختلف الشبهات، ويشكك في نسبه وفي أنه ولد من عذراء، وينكر كل معجزاته فينسبها جميعاً إلى الكذب والتلفيق، أو يردها إلى خداع الحواس والوهم. وحين يتناول محمداً ﷺ يجعله واحداً من الزعماء والفلاسفة والمفكرين، ثم يصوره في هيئة المتصابي العصبي المزاج المريض الأعصاب المصاب بالصرع فهو يقول: «وكان يُعنى بمظهره الشخصي، ويقتضي في تلك العناية كثيراً من الوقت، فكان يتعطر ويكتحل ويصبغ شعره ويلبس خاتماً عليه (محمد رسول الله).. وكان قلقاً عصبي المزاج، يُرى أحياناً كاسف البال، ثم ينقلب فجأة مرحاً كثير الحديث، وقد أعانه نشاطه وصحته على أداء واجبات الحب والحرب. ونراه في مواضع مختلفة من كتابه يصور المسلمين في صورة عصابات اللصوص وقطاع الطرق».

ويترك محمد محمد حسين ميدان الترجمة في جامعة الدول العربية ليقتحم ميدانها فيما تنتجه مؤسسة فرانكلين الأمريكية، وقد اختار من بين إنتاجها الغزير سلسلة عنوانها «كيف تفهم الأطفال ـ سلسلة دراسات سيكلوجية» وقد كشف ما فيها من دعوة صريحة لممارسة الفجور وإشباع الجنس دون ضابط أو رابط، يقول في ذلك: «فهذه الدعوات وأمثالها مما تنزعج له لأنه ينافي الدين والخلق القويم، ومما نسميه نحن بذاء أو فجوراً، ويسميه أصحابه (علماً)، ويعنونونه تحت عنوان جميل اسمه علم النفس، ويغذون الناس

باسم العلم فيما فشل فيه التبشير والدعوات الهدامة طوال قرن من الزمان».

كذلـك يتناول كتاباً ثانياً أصدرته مؤسسة فرانكلين أيضاً، وهو ترجمة لبحوث إسلامية قدمت إلى مؤتمر الشرق الأدنى الذي عقد سنة **١٩٥٣** في جامعـة برنستـون، وقد كشف محمد محمد حسين النقاب عن سموم كثيرة تضمنتها بحوث هذا الكتاب، فكان بحث الدكتور ميلر بروز تشكيكاً في أسس العقيدة الإسلامية كالإيمان بالوحي والإيمان بنبوة محمد ﷺ وبصدق القـرآن، فهو يطالب بوضع تجربة الدين وتجربة النبوة والمعجزات والصلاة والحياة الآخرة موضع البحث، وإخضاعها لقواعد علم النفس الحديثة التي تقوم على الحدس، والتي تخضع هي نفسها للتغيير والتبديل.

أما بحث هارولد سميث فيزعم فيه أن الصياغات اللفظية نسبية، ومن ثم فهي غير معصومة، ويجب تعديلها بين حين وآخر، كما يدعو إلى محاصرة الـدين لتضييق نفوذه وقصره على شؤون العبادات، فهو يقول: إن خدمة الدين تكون أكثر إنتاجاً إذا وضعت في يد هيئة دينية مستقلة.

ومما كشفه محمد محمد حسين من سموم هذا الكتاب محاولة الدكتور كون والدكتور ولسون بعث التاريخ القديم السابق على الإسلام في كل بلد من البـلاد الإسـلامية لتلوين الحياة المحلية في كل منها بلون خاص يستند في مقوماته إلى أصول الجاهلية الأولى، وبذلك تعود الحياة الاجتماعية التي وحد الإسلام مظاهرها إلى الفرقة والتشعب، ثم تكون أكثر قبولاً لأصول المدنية الغربية.

ولم تكن بحوث المستشرقين وحدها في هذا الكتاب متضمنة لمثل هذه السموم الخبيثة، بل شاركتها بحوث المسلمين المتفرنجين الذين حاولوا تطوير الشريعـة الإسـلامية بحيث تصبح أداة لتسـويغ القيم الغربية، فتحدث الدكتور/ فضل الرحمن الهندي عن الإسلام الذي أنزل على محمد ﷺ فسماه

الإسلام الفكر الكلاسيكي، في مقابل الإسلام الحديث المتأثر بالمذاهب الغربية، وهو يرى أن كل تغيير جديد في رأي الإنسان عن العالم يستلزم إعادة تقرير للحقائق الأساسية للعقيدة. وينتقد الدكتور/ آصف علي فيظي الشريعة الإسلامية، ويدعو إلى إعادة النظر فيها وحمل الناس على القانون المدني، ويقول في غير ما حياء: «فالتيار المعاصر من الفكر الأوربي، والتقدم العظيم الذي حققه المفكرون البروتستانت منذ أيام لوثر والمدرسين منذ توما الإكويني.. وتأملات المفكرين اليهود وغيرهم في العالم الحديث يجب أن تستخدم في بصيرة لتقوّي وتجدد المبادىء اللاهوتية الإسلاميّة».

إن ترجمة مثل هذه البحوث ونشرها على الناس، وفيهم غير القادر على تمييز الخبيث من الطيب، يمثل خطراً ممتد الأثر في أجيال وأجيال، ويضع المسلمين أمام مسؤولية مباشرة إزاء حركة الترجمة في عصرنا الحديث التي تتناوشها نزعات الهدم والتغريب من كل جانب. وقد كان موقف محمد محمد حسين من الترجمة ثابتاً لا يتغير، كما كان تنبهه إلى الأهداف الخطيرة الخبيثة فيها قديماً متصلاً، منذ بدأت علاقتنا بالغرب تتسع وتتوطد، فقد أدرك ما في كتابات رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي من أفكار غربية مترجمة، وأدرك دور النصارى في نشر الثقافة الغربية عن طريق الترجمة المباشرة، وكان ذا بصيرة واعية بحركة التغريب Westernization وجهدها في محو أصول الحياة الإسلامية وقيمها عن طريق تفرقة المسلمين وإيجاد إسلام إقليمي في كل بلد، ومحاولة فصل الدين عن الدولة، كما كان ذا إدراك ممتاز لما تمثله الترجمة من صور الصراع الحضاري والفكري بين ثقافتين مختلفتين، بل عالمين متميزين: العالم الإسلامي والعالم الغربي الذي تثقله عصبية المسيحية أو اليهودية أو الإلحادية.

رحم الله محمد محمد حسين وأثابه قدر جهوده في كشف سوءات أعداء الإسلام ودحض دعاواهم.

منهج الدرس الأدبي ونقده عند المرحوم
الأستاذ الدكتور/ محمد محمد حسين

من الحقائق المعروفة أن الإنسان والحضارات كالشمس يطلعان ويغيبان، ومع ذلك فهما أبداً باقيان، ولعل أعظم نصر حققه الإنسان هو في قدرته على أن يجعل من نهاية الحياة مخرجاً للروح وطريقاً إلى الخلود.

ولذلك فإن فناء الإنسان مختلف عن فناء العناصر الطبيعية الأخرى، فالإنسان يمتاز على كل ما في الطبيعة بالعلاقة القائمة بينه وبين آثاره، وهي العلاقة التي لا يمكن أن تفنى أو تموت.

ولعل العباقرة والعلماء من أبناء الشعوب هم الذين يقع عليهم قبل غيرهم تضحية أنفسهم من أجل تحقيق أغراض الإنسانية، وتوسيع رقعة الحياة الروحية للبشر، وتنمية وحدة الإنسان، وذلك حين يسلم الإنسان نفسه لحركة التطور المستمرة، فينفق حياته وذاته من أجل هذا الواجب العظيم.

وقد كان أستاذنا المرحوم الدكتور محمد محمد حسين أحد هؤلاء الذين وقع عليهم عبأ تضحية أنفسهم من أجل تحقيق قيم ومبادىء آمن بها، ودافع عنها، وحارب من أجلها، ونجح في إرسائها على طول مسيرة حياته العلمية المشرفة.

ومن هنا فنحن نخطىء إذا تصورنا أن الموقف الفكري والعلمي والأدبي الذي وقفه محمد محمد حسين في حياته كان مجرد مادة منتهية، أو زمناً ميتاً،

وقد انتقلت العدوى إلى لغة التأليف ذاتها، فأصابها من انحطاط الأسلوب والتهاون في الحرص على الصحيح من اللفظ إلى درجة شاع معها الخطأ وكأنه الصواب، وشاعت الركاكة، واضطرب على الناطقين بها تذوق اللغة في جمالها وجلالها، وضاع بالتالي بهاؤها الذي امتازت به في عصور ازدهارها، وكان يحز في نفسه رحمه الله أن يحدث هذا في وقت تعتبر فيه اللغة العربية بالنسبة للناطقين بها في جميع أرجاء الوطن العربي الرابطة الحقيقية التي تشد من وحدته، وتؤكد صلاحيته للتماسك.

من أجل هذا كان حرص أستاذنا على إصلاح ما فسد، ووضع القدم على الطريق المؤدية لازدهارها يعتبر مطلباً قوميًّا يقف من حيث الأهمية في أعلى مكان من الاعتبار، وكثيراً ما كان يظهر هذا من الناحية العملية في تقدير الأستاذ لتلاميذه، وتقويم أعمالهم أثناء اختباراتهم الشفوية والتحريرية، فكان ضبط النص الأدبي، والحفاظ على سلامته من اللحن مقياساً أساسيًّا في قدرة الطالب على تمكنه من لغته، وعلى قدرته من فهم النص الأدبي وتحليله، وكان يرى أن الطالب الذي لا يتمكن من ضبط النص يفشل دائماً في فهمه وتحليله.

أما بالقياس إلى منهج الدكتور محمد محمد حسين في درس الأدب ونقده فإن حديثنا عنه سوف يتجه إلى ناحيتين أساسيتين:

الأولى: منهجه العام وهو منهج جيل بأكمله يتمثل فيما أرساه الدكتور طه حسين من دعائم البحث في الدراسة الجامعية الحديثة.

والثانية: منهجه الخاص الذي تناول به تحليل الشعر ونقده.

وأما المنهج العام الذي أرسى دعائمه أستاذنا الدكتور طه حسين فهو الدعوة إلى الحرية والتعقيل، ولم تكن الدعوة إلى التزام هذا المنهج بالأمر اليسير في أوائل هذا القرن، بل كانت في حاجة إلى حرب طاحنه، إذا أدركنا

القيود التي كانت مفروضة على الدارسين والباحثين، والتي كانت تزداد صلابة وصرامة على مر السنين، على الأخص في فترة الظلام التي وصلت فيها العقلية العنمية إلى سن اليأس.

من هذه القيود قيد الجهل والخرافة في فهم الناس للظواهر والأحداث.

ومنها أيضاً قيد النص المنقول الذي يفرض نفسه على الدارسين فرضاً، فلم يكن أمام الدارسين من منافذ التفكير المستقل إلا أن يعلِّقوا على النص بالحواشي والهوامش، ثم على الهوامش بهوامش أخرى وهكذا[1]، ثم جاء طه حسين متأثراً بمنهج جديد يدعو إلى الحرية والتعقيل، ويقول عنه في كتاب «في الأدب الجاهلي»: «أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث، والناس جميعاً يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوًّا تامًّا، والناس جميعاً يعلمون أن هذا المنهج الذي يسخط عليه أنصار القديم في الدين والفلسفة يوم ظهر قد كان من أخصب المناهج وأقومها وأحسنها أثراً، وأنه قد جدد العلم والفلسفة تجديداً، وأنه قد غير مذاهب الأدباء في أدبهم»[2].

هذا الاتجاه الداعي إلى استقلال النظر والاجتهاد بالرأي والفكر، والتحرر من أغلال النص المنقول، ثم الاحتكام إلى العقل، والاستناد إلى سلامة الاستدلال في استخراج الأحكام من مقدماتها، كان الأساس الذي اعتمد عليه المنهج العام الذي شاع في ذلك الوقت، وكان له تأثير واضح في جيل بأكمله من أساتذة الجامعات، وقد كان أستاذنا طه حسين كان شديد

(١) انظر ما كتبه الدكتور زكي نجيب محمود عن هذا المنهج في كتاب «فلسفة وفن».
(٢) «في الأدب الجاهلي» ص: ٦٩.

إنه على النقيض من ذلك جسرمحدودعلى كل الأزمنة، فحريته وحرية جيله كانت حرية كل جيل يقود العصيان على معوِّقات الحياة والإنسان.

من أجل ذلك لم نكن مسرفين إذا قلنا: إن أستاذنا بآثاره وأعماله ومواقفه الإبداعية كان مجرد حدث تاريخي توقف عن الحياة، أو زمن منته، إنه على العكس من ذلك ما يزال يتنفس في أعمالنا وأقوالنا، وسيظل كذلك إلى آماد من الزمن بعيدة.

وإذا كان لي أن أخـرج من التجريد إلى التحديد، وأن أتجنب طغيان عاطفة مشبوبة من تلميذ لأستاذ كان له فضل كبير من تكوينه وتكوين جيله، فإن عليَّ أن أحاول اكتساب كثير من الموضوعية، وأن أطرح عن النفس حرج تلك اللحظة البالغة الحساسية، لكي أحاول الوقوف على بعض ما حققه هذا الرجل لجيله وللأجيال القادمة من بعده.

إذا جاز أن أخـوض في شيء كهذا على دقته فإنني أجد نفسي مبهوراً بملمحين اثنين عن أستاذنا الجليل، كان لهما تأثير كبير في تلاميذه وهما:

أولاً: موقفه من التراث ومن لغتنا العربية.

ثانياً: منهجه في درس الأدب ونقده.

أما موقفه من التراث فلم يكن موقف التوقير والإجلال لحضارة الأمة الإسلامية وفكرها فحسب، بل كانت له وقفته الخاصة والإيجابية من هذا التراث، ثم كانت صلته بهذا التراث ونوعية هذه الصلة من الوجهة العلمية والسلوكية متميزة.

فعلى الرغم من وفرة ما قرأ الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين من مادة التراث المكتوبة، وعلى الرغم من أن هذه المادة كانت بما تشتمل عليه من آراء وآثـار وأفكار تمثل الجانب الكبير من ثقافة أستاذنا، وأنها تدخل في تكوين

شخصيتـه وفكـره، على الرغم من ذلك فإن صلة أستاذنا بالتراث هي في الحقيقة صلة تتجاوز ذلك. . أي: تتجاوز مادة التراث المكتوبة إلى ما وراء هذه المادة، ونعني بذلك الارتباط بالأعماق التي احتضنت هذه المادة وأدت إلى وجـودها، إنه ارتباط بروح الأمة ذاتها، بينابيع حياتها، بمثلها وتطلعاتها، حيث الجـذور والبذور والأصول والأسرار، إنه تمثل وتشرب لحضارة الأمة العربية والإسلامية وذوقهما.

وقـد كان هذا الفهم الغني للتراث خير عونٍ له على استيعاب حاضر الأمـة وماضيها، والمتحدث في الدرس الأدبي ـ سواء أكان درساً مكتوباً أو منطوقاً ـ بصوت الينابيع الأصلية في أعماق التراث، الناطقة بحضارة شعوب هذه الأمة.

ولـذلـك فقـد كان رحمه الله من الأساتذة القلائل الذين امتزج درس الأدب عندهم بأصوات شعوب الأمة وحضارتها، فلم يكن درسه للشاعر دراسة لصوت الشاعر وحده، بل كان دراسة لصوته وصوت أمته وعصره، وبهذا الأسلوب الذي اتخذه لنفسه في فهم التراث يعتبر أستاذنا خير كاشف لما خُفي من جوانب هذا التراث وخير موجه ومشير لأجمل ما فيه، وخير واضع لأيدي تلاميذه على كنوزه وقيمه، ودافع لهم على سلوك هذا الطريق الذي يراه وارف الظلال والأثمار.

أما حرصه على سلامة اللغة العربية وحماسته لها وغيرته عليها واهتمامه بأن تظل بعيدة من عوامل التدهور، فقد كان هذا من أكثر الأهداف التي كان يسعى إلى تحقيقهـا في درسه الأدبي، وكان أشد شيء يؤذيه أن يرى طلابه يخطؤون في نطق كلمة، أو يلحنون عند كتابتها أو قراءتها، وكان يحزنه أشد الحزن أن يرى ما تعانيه اللغة العربية في السنوات الأخيرة من التدهور في أساليب الحديث والكتابة والتعبير بهما بدرجة ملحوظة في المدارس والمعاهد والجامعات وفي الإذاعة والصحافة وسائر وسائل الاتصال بالجماهير.

الحماسة لهذا المنهج في أول حياته العلمية، وقد ذكر لنا أنه من شدة حماسته لفكـرة الانتحـال في الشعر الجاهلي جعل الجزء الأكبر من جهده في رسالة الماجستير التي كانت على الأعشى يتجه نحو دراسة لتحقيق نص الأعشى وتخليصه من الفوضى التي كانت عالقة به، وأنه رحمه الله قد غالى في تطبيق فكرة الانتحال هذه مغالات جعلته يندم على ذلك فيما بعد، الأمر الذي دفعه إلى أن يستغني عن هذا الجـزء من البحث، ويكتفى بدراسته لشعر الخمر والناقة، وينشر هذا الجزء من البحث وحده تحت عنوان «أساليب الصناعة في شعر الخمر والناقة».

على أن هذا الجانب، ونعني به قضية تحقيق النص الشعري، وضبطه والتـأكـد من سلامتـه، ومن صحـة نسبته إلى قائله لا يبدو متصلاً بالنقد التحليلي قدر اتصاله بالنقد التاريخي. أما بقية أركان المنهج العام الذي حددنا أهم أركـانه فقد كانت أكثر نفعاً وفائدة، وأعمق تأثيراً في دراسة أستاذنا، ونعني به المنهج الذي يستند إلى عنصري الحرية والتعقيل، أو بمعنى آخر التحرر من النص المنقول ومن قيود الجهل والخرافة، ثم الاستناد إلى العقل في الأحكام التي ينتهي إليها الباحث.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى النظر في منهج أستاذنا النقدي والتحليلي في درس الأدب، فإننا ننتقل إلى أكثر الجوانب خصوبة وإبداعاً عنده، ويمكننا تلخيص أهم أهداف هذا المنهج واتجاهاته في السطور التالية:

تقـوم هذه الفلسفة على حقيقة هامة وصادقة أشد الصدق، وهي أن دراسة الأدب هي في نهاية الأمر القدرة على تذوق النصوص وفهمها والحكم عليها، وأن قراءة مؤلفات كبار الشعراء والكتاب هي السبيل إلى تكوين ملكة الأدب في النفوس، وليس هناك سبيل آخر، ذلك أن المعرفة الأدبية الحقة لا تتم عند القارىء إلا بطول المصاحبة والمعاشرة للآثار الفنية، وأن الجانب التطبيقي والعملي الذي يتمثل في الممارسة والدربة والمران على تحليل النصوص

الأدبية هو الوسيلة إلى تكوين المعرفة، أي: الوصول إلى الحقيقة، ثم هو الوسيلة لتكوين ذوق أدبي، واكتساب منهج موضوعي في التحليل يلتزم النص الأدبي، فيصدر في أحكامه عن منهجية تضع يد القارىء أو السامع على مواطن الجمال والقبح، وتعلل لذلك تعليلاً يقبله الآخرون، تعليلاً مدعّماً بالأسانيد، فيصبح الحكم - مع اعتماده على الذوق - وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة تصح لدى الآخرين، كما تصح لدى الناقد.

وأهمية هذا المنهج في دفع الطالب إلى النص الأدبي دفعاً، ووضعه وضعاً مباشراً أمامه، في محاولةٍ لاستجلاء الحقائق من داخله، ثم لتجنب الانزلاق في متاهات أخرى من شأنها أن تباعد بين الطالب والأثر الفني الذي بين يديه إلى أشياء أخرى على هامش الدراسة وليست في صميمها. وهذا ما نراه الآن في معظم الجامعات المتقدمة، فالتعليم والبحث فيها يقدمان في جميع درجاتها على قراءة النصوص المختارة من كبار الكتاب، وتفسيرها والتعليق عليها، وفي أثناء ذلك يتناول الأساتذة النظريات العامة والمبادىء الأدبية واللغوية بالعرض عرضاً تطبيقيًّا مؤيداً بالنصوص التي يختارونها.

هذا المنهج التطبيقي الذي يقوم على دراسة النص سوف يحقق غرضين أساسيين هامين:

الأول: تكوين حاسة التذوق والتمييز بين الطلاب عن طريق التدريب المستمر على فهم النص وتحليله، وبالتالي تشجيع الطلاب وفتح شهيتهم على قراءة تراثهم برؤية حساسة وذكية، ثم اكتساب القدرة فيما بعد على تكوين منهج تحليلي يعتمد على الذوق وموضوعية الأحكام.

الثاني: إدراك الأصول العامة للأدب من خلال الدرس التطبيقي للنص، وذلك حين يلم الطالب بجملة من الحقائق والنظريات المتصلة بالأثر الفني الذي بين يديه والوصول إلى مفهوم شامل للأدب يصدق على

الماضي والحاضر بما يتفق مع ماهية الأدب.

هذه هي أبرز خطوط منهج أستاذنا التحليلي في دراسة الأدب ونقده، وهو يلفت النظر إلى جملة من الحقائق والنتائج يحسن بنا أن نجملها في النقط الآتية: ـ

أولاً: ليس في النقد التحليلي قواعد ثابتة أو مفروضة على الأثر الأدبي من الخارج، إذ لو كان للأدب قواعد تُفرض عليه من الخارج وتتحكم فيه لما ظل الأدب أدباً بل لانحطَّ إلى أردأ أنواع الصنعة الآلية.

ثانياً: ليس أمامنا عند ممارسة الأثر الفني ونقده عند الناقد والأثر الذي بين يديه ـ وكل أثر فني هو حالة خاصة مستقلة تنبع الأحكام عليها من داخلها، وكل قطعة أدبية تحكم على ذاتها بذاتها ـ وكل ما لدينا هو ناقد خبير واع وعياً كافياً بتطور الفن الذي يدرسه وقضاياه، ومزود ـ وهذا هو الأهم ـ بثقافة ذاتية تكونت عبر السنين من طول النظر والتأمل والمصاحبة والمعاشرة للآثار الفنية.

ثالثاً: العنصر الشخصي أو الذوق الذي كان أساساً في عملية الإبداع هو كذلك أساس في عملية النقد والشرح والتفسير، إذ لا مفر من الاحتكام إليه، أي: إلى الذوق الذي هو الوسيلة الوحيدة التي تمكننا من الإحساس بالمؤلفات الأدبية، على أن نعرف كيف نضبطه ونوجهه ونخرجه من حيز الخصوص إلى حيز العموم.

رابعاً: ليس نقد الأدب أن ننقل الاهتمام من الأثر الفني إلى التاريخ أو السياسة أو تراجم الحياة أو الفلسفة أو الفقه اللغوي أو علم النفس أو علوم الجمال إلا بالقدر الذي يساعدنا على فهم النص وإلقاء جوانب من الضوء عليه، على ألا تخرجه هذه العلوم عن المهمة الأساسية التي هي العناية بصورة الأدب، أو قل هي تعقب عناصر النص ومقوماته،

والإشـارة للعنـاصر والخصـائص التي امتازت بها هذه القصيدة عن غيرها، ولماذا أحدثت هذا الأثر في نفس قارئها أو سامعها.

هذه هي أبرز ملامح منهج أستاذنا الدكتور/ محمد محمد حسين للنص الأدبي، وقد كانت الساعات التي يقضيها مع تلاميذه في درس النص الأدبي من أمتع الساعات وأجملها، وذلك لما كان يتمتع به رحمه الله من قدرة على تحويل النص الـذي أمـامـه من أشكـال موسيقية مرسـومة على الورق إلى اهتزازات عاطفية وحقائق إنسانية وفنية.

رحم الله أستاذنا فقد كان يلتمس كل السبل التي تجعل من كل تلميذ من تلاميذه عاشقاً للغة فخوراً بها. يعينه على ذلك حس مرهف وذوق أدبي رفيع.

د. محمد زكي العشماوي

* * *

محمد محمد حسين في «الاتجاهات الوطنية»

حينما عرضت دعوة قسم اللغة العربية بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية للاشتراك في ندوة علمية عن أستاذها الراحل ١٩٨١م على أحد أقسام اللغة العربية بجامعة إقليمية، تحير المتخصصون فيمن يكون محمد محمد حسين، أهو محمد حسين هيكل، أم محمد كامل حسين، ثم إن أحدهم يقول: إنه محقق «ديوان» الأعشى، وآخر يقول: «صاحب الاتجاهات الوطنية»، فحمدت الله أن يعرف أستاذي ولو بمؤلف واحد، وعجبت أن الذي عرف عنوان الكتاب لم يفد منه في بحث له عن «أحمد شوقي وأزمة القصيدة التقليدية ـ دراسة في ضوء الواقع السياسي والاجتماعي»، وإلا لما ترك مظاهر أزمة القصيدة إلى إدانة شوقي في وطنيته.

وكتاب «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» يعد مرجعاً أصيلاً في موضوعه بحجمه وقيمته العلمية، فهو في جزأين تبلغ صفحاتهما أكثر من سبع مئة عدًّا.

أما قيمته العلمية فتتمثل في نزاهة القصد من المؤلف، واستيعابه لموضوعه وإن اختلفت وجهات النظر في بعض الكتاب.

وللمؤلف كتاب «حصوننا مهددة من داخلها»[1] يدور حول نقد اتجاهات ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية، ويذكر في مقدمة الطبعة الثالثة

---

(١) طبع مراراً، وقد قرأنا الطبعة السادسة (١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م) عن مؤسسة الرسالة بيروت.

أنه من هذه الناحية يعد امتداداً لكتابه «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر».

وتبدو عناية المؤلف بالشاعر شوقي ووطنيته في غير موضع من الكتاب، فقد أورد اسمه نحو سبعين مرة، وهو ما لم يحظ به غيره من شعراء هذه الدراسة، بل إنه في مقدمة الطبعة الأولى يقول: «كان اتجاهي أول الأمر إلى أن أكتب عن الوطنية في شعر شوقي»(١).

ويتناول الجزء الأول الفترة من الثورة العرابية إلى قيام الحرب العالمية الأولى، ويتناول الجزء الثاني من قيام الحرب العالمية الأولى إلى قيام الجامعة العربية.

ولعل ما يلفتنا إنصاف المؤلف لشوقي مما رُمي به في وطنيته، فهو يمدح القصر والسلطان عبد الحميد، وكل شعراء عصره يمدح الخليفة التركي حافظ ومحرم والكاشف لأنهم يعلقون على تركيا آمالاً يعبر عنها الكاشف ـ مثلاً ـ في قصيدته في عيد جلوس الخديوي عباس عام ١٩٠٣ بقوله:

إن اتصالَكَ بالخليفةِ ضامنٌ ... ردَّ المغيرِ مَروّعاً مغلوباً(٢)

إن الباحث الذي يبغي إنصافاً، ولا يريم عن دقة البحث إنما يسترجع الجو التاريخي للشخصية التي يترجم لها، فلا يقطع القول عن مناسبته وظروف البيئة، أو ما يسمى بقرينة الحال Contesct of sitnation فحيث يأخذ طه حسين على شوقي قوله:

اللهُ أكبرُ كم في الفتحِ من عجبٍ ... يا خالدَ التركِ جدِّد خالدَ العربِ

(١) نعتمد في بحثنا على الطبعة الثالثة (١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م) المطبعة النموذجية القاهرة، وقد نشرت الطبعة الأولى عام ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م، ونعني في بحثنا هذا بدراسة المؤلف عن شوقي بوجه خاص، وقد وردت متفرقة في الجزأين.

(٢) «الاتجاهات»: ١/ ١٧.

فإن محمد حسين يرى أن إعجاب شوقي بمصطفى كمال لانتصاره أواخر عام ١٩٢٢ بعد أن تم جلاء اليونان عن الأناضول كله هو انتصار للإسلام على المسيحية، كما يقول اللورد ويفل[١]، وكما يشير إليه عندنا قول شوقي في القصيدة نفسها:

ولا أزيدك بالإسلامِ معرفةً ... كل المروءةِ في الإسلامِ والحبِّ[٢]

أما أن يكون شوقي وغيره من الشعراء خُدعوا في مصطفى كمال، فقد ظنوه وقتذاك يعمل للإسلام[٣]، فحسبهم - فيما نرى - الصدق في التعبير عن مشاعرهم إبان النظم.

ويؤيد المشاعر الإسلامية عند شوقي خيال مصطفى كمال أنه حين أسفر عن نيته فألغى الخلافة، وطرد الخليفة وآله خارج تركيا، نظم شوقي قصيدة يصفها محمد حسين بأنها: «قوية لا يكاد يُعدُّ لها في حرارتها وفيما صدرت عنه من عاطفة صادقة إلا قصيدته في سقوط أدرنة»[٤]. وهو فيها يخاطب «خلافة الإسلام» قائلاً:

عادتْ أغاني العرسِ رجعَ نواحِ ... ونُعيتِ بينَ معالمِ الأفراحِ[٥]

ويعرض بمصطفى كمال بمثل قوله:

أدُّوا إلى الغازي النصيحةَ ينتصِحْ ... إنَّ الجوادَ يثوبُ بعد جماحِ
هُم أطلقوا يَده كقيصرَ فيهمو ... حتى تناولَ كلَّ غيرَ مباحِ[٦]

ونلاحظ أن محمد محمد حسين يورد من هذه القصيدة أبياتاً كثيرة انفعالاً

---

(١) «الاتجاهات»: ٢/ ٢١.
(٢) «الشوقيات»: ١/ ٥٩ ط، الاستقان القاهرة عام ١٩٦١م.
(٣) «الاتجاهات»: ٢/ ٢٢ «حاشية».
(٤) «الاتجاهات»: ٢/ ٣٣.
(٥) «الشوقيات»: ١/ ١٠٥.
(٦) «الشوقيات»: ١/ ١٠٧، ١٠٨.

منه بها، وليخلص إلى أن شوقيًّا يهاجم مصطفى كمال في عنف لا يعدله إلا تحمسه له بالأمس، فمن أجل الإسلام وحده قد مدحه يومذاك، ومن أجل الإسلام وحده يهاجمه اليوم[1]، معززاً ذلك المعنى بأشعار لمحرم ومحمد عبد المطلب[2].

والنظر إلى الجو العام في مصر ١٩١٩م وما حولها حتى «بدت الوطنية في شعر الشعراء ضرباً من عبادة مصر» [3] يغتفر لشوقي بعض عباراته كما في قصيدته «بعد المنفى» عام ١٩٢٠م إذ يقول مخاطباً الوطن:

ولو أني دُعيت لكنتَ ديني عليهِ أقابلُ الحتمَ المُجابا
أديرُ إليكَ قبلَ البيتِ وجهي إذا فهتُ الشهادةَ والمتابا[4]

ومن قصيدته عام ١٩٢٤ بعد أن أطلق سراح بعض السجناء بأحكام المحاكم العسكرية الإنجليزية بعنوان «تكريم» يقول:

وجهَ الكنانةِ ليس يغضبُ ربُّكم أن تجعلوهُ كوجههِ معبودا[5]

ويقفنا محمد حسين على أن تعبير «ظل الله على الأرض» لقب الخليفة التركي[6] كما يقول محرم يدافع عن عبد الحميد بعد عزله:

ألم يكُ ظلَّ اللهِ بالأمس بيننا نلوذُ بهِ والخطبُ ضنكٌ مذاهِبُه

والمقصود بهذا التعبير عندنا الرحمة[7]، غير أن بعض الباحثين المعاصرين يرى في مدحه شوقي لمحمد توفيق أن تعبير «ظل الله» ينم عن «الفهم الإقطاعي المبتذل» حيث يقول:

---

(١) «الاتجاهات»: ٢/ ٣٤.

(٢) «الاتجاهات»: ٢/ ٣٥، ٣٦.

(٣) «الاتجاهات»: ٢/ ١٣٨.

(٤) «الشوقيات»: ١/ ٦٦ الحتم المجاب: الموت.

(٥) «الشوقيات»: ١/ ١١١.

(٦) «الاتجاهات»: ١/٣٣.

(٧) وفي الحديث: «سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظلَّ إلا ظله».

هذا العزيزُ وذاكَ بابُ نوالِهِ ... تتبخترُ النَّعماء تحتَ ظلالهِ
أوَما تَرَى الساداتِ في أبوابهِ ... ترجُو لها التشريفَ باستقبالهِ
ويظِلُّهم «ظلُّ الإله» . فكلُّهم ... آتيه عبداً خاشعاً لجلالهِ[1]

وأيًّا ما كان الرأي في التعبير، فإنه ـ عندنا ـ يمثل الصورة المقابلة في بعض شعر هذه الفترة، ففي قصيدة ولي الدين يكن «لبيك أماه دعوتِ الكرامَ» في عدوان إيطاليا على ليبيا، يلتفت محمد محمد حسين إلى أنه لم يشر فيها إلى الإسلام، لأنه ينتمي إلى جماعة تركيا الفتاة[2] التي كانت تدعو إلى القومية التركية مستبعدة الإسلام من مقومات الوطنية[3].

وقد كانت المقارنة سبيلاً لإبانة ما في شعر شوقي من وطنية وعروبة وإسلام، وإن بدا لنا أنها وردت عَرَضاً حينما أشار الدكتور محمد محمد حسين إلى أن قصيدة شوقي نكبة دمشق تزيد عدد أبيات عن قصيدة خليل مطران، معقباً بقوله: «ومن الواضح أن الصداقة الفرنسية اللبنانية هي السبب في ذلك، فهؤلاء وأمثالهم هنا في مصر لا يتحدثون ـ وإن تحدثوا ـ إلا عن ضحايا الاستبداد الإنجليزي، أما ضحايا الاستبداد الفرنسي فهم يغمضون أعينهم عنهم، فإن اضطرتهم الظروف للكلام استعانوا بكل ما رُزقوا من لباقة ولم يفصحوا[4]».

ويدلنا على صدق هذه الملحوظة أن قصيدة مطران لم تندد بالاحتلال الفرنسي، حتى أنك تقرأ أبياتها الأربعة فلا تعرف من المعتدي[5]، أما شوقي

(١) د. علي البطل: «أحمد شوقي وأزمة القصيدة التقليدية» ص ٣٣، بحث مقدم لمهرجان الاحتفال بذكرى حافظ ١٩٨٢م.
(٢) أو حزب الترقي والاتحاد.
(٣) «الاتجاهات»: ١/ ٤٠.
(٤) الاتجاهات»: ٢/ ١٢٥ «حاشية».
(٥) وهي بعنوان «نكبة دمشق»:
ما عينُ «فيجتِها» وصافي مائِها ... هي أمةُ رُوِيَ الثرى بدمائِها =

فقد أشار إلى فرنسا صراحة، وهول الأنباء التي توالت بعد أن أعمل الفرنسيون فيها الضرب بالمدافع أربعاً وعشرين ساعة في أكتوبر ١٩٢٥ ومنها:

سلامٌ من صَبا بَرَدى أرقُّ ودمعٌ لا يُكَفْكَفُ يا دمشقُ

ثم يقول:

وقيلَ معالمُ التاريخِ دُكَّتْ وقيلَ أصابَهَا تلفٌ وحَرقُ
رماكِ بطيشهِ ورمَى فِرَنسا أخو حربٍ به صَلَفٌ وحمقُ[1]

وقصيدة شوقي خمسة وخمسون بيتاً يورد محمد محمد حسين كثيراً منها، ولا يورد أبيات مطران، فشوقي يجيش بالعاطفة، ولا كذلك مطران فيما نرى.

ثم يورد أبياتاً من قصيدة أخرى لشوقي، بعد ما اضطر الفرنسيون إلى إجابة السوريين لبعض مطالبهم، وهي بعنوان: «ذكرى استقلال سوريا وذكرى شهدائها» ومطالعها:

حياةٌ ما نريدُ لها زِيالا ودُنيا لا نَوَدُّ لها انتِقالا[2]

وهي أربعة وخمسون بيتاً.

من أجل هذا يعد محمد محمد حسين الحفلات التي أقيمت لتكريم شوقي في القاهرة عام ١٩٢٧، والتي بويع فيها بإمارة الشعر «من أروع مظاهر الجامعة العربية»[3] ويجيء حكمه في غير تعسف بعد إيراد قصائد ثلاث

= أفما ترَوْنَ بلاءَها في نفحِها عن حوضِها؟ للهِ حسنُ بلائِها
وقعاتُ أبطالٍ يصولُ على العدى فيها أباة الضيمِ من أبنائِها
لولا ضنايَ لكنتُ من أشهادِها يومَ الفدى ولكنتُ من شهدائِها

«ديوان الخليل» ٣/ ١١٣. ط. دار الكتاب العربي. بيروت.

(١) «الشوقيات»: ٢/ ٧٣ ـ ٧٥.

(٢) «الشوقيات»: ٢/ ١٨٠.

(٣) «الاتجاهات»: ٢/ ١٢٨.

لشوقي في سورية، ويستشهد في شعر المبايعة بقول خليل مطران:

يا باعثَ المجدِ القديمِ بشعرهِ ... ومجددٌ العربيةِ العرباءِ
أنتَ الأميرُ ومن يُكِنُّه بالحِجى ... فله بهِ تيهٌ على الأمراءِ

وبشعر شوقي نفسه في حفلة التكريم، إذ عبر عن معنى العروبة «وإن كان قد ذهب إلى التكنية عن العرب بالشرق»[1] وذلك حيث يقول:

يا عكاظاً تألَّفَ الشرقُ فيهِ ... من فلسطينه إلى بغدانِهْ
كلّما أنَّ بالعراقِ جريحٌ ... لمسَ الشرقُ جنبَهُ في عمانِهْ[2]

وقد اتسمت مؤلفات محمد محمد حسين بكثرة النقول وتنوعها، ليثبت الحكم في القضية التي يسوقها، بالإضافة إلى إحياء ما كان يموت أو يتلاشى في ذاكرة التاريخ، وكانت تعبيراً عن انفعاله الخاص أحياناً.

وفي «الاتجاهات الوطنية» وفي إطلالة النعرة الفرعونية حول عام ١٩٢٠، يذكر أنهم رسموا رأس أبي الهول على طوابع البريد وعلى أوراق النقد، ونقلوا رُفات سعد زغلول إلى ضريح بُني على طراز فرعوني[3] . . وغير ذلك من مظاهر فرعونية كان لها صدى في شعر الشعراء، ومنهم حافظ إبراهيم في قصيدته «مصر تتحدث عن نفسها» التي أنشدها في الحفل الذي أقيم تكريماً لعدلي يكن بعد عودته من أوربا قاطعاً المفاوضة مع الإنجليز، ومستقيلاً من الوزارة[4]، وفيها يفاخر حافظ بالفراعنة كل حضارة قديمة حين يقول مثلاً:

وشدا بنتؤور فوقَ رُبوعي ... قبلَ عهدِ اليونانِ أو عهد نجدِ[5]

---

(١) «الاتجاهات»: ٢/ ١٢٩.
(٢) «الشوقيات»: ٢/ ١٨٩ ـ ١٩٢.
(٣) «الاتجاهات»: ٢/ ١٣٩.
(٤) نشرت في ١٥ ديسمبر ١٩٢١.
(٥) «ديوان» حافظ إبراهيم: ٢/ ٧٩ ط. الأميرية. بالقاهرة ١٩٥٥م.

ويعقب محمد حسين قائلاً: «وهكذا يبدو أن عهد (نجد) وشعرائه ليس له من الكرامة عند الشاعر أكثر مما لعهد اليونان وشعرائه»[1].

أما شوقي في كل قصائده - كما يقول محمد محمد حسين «لا تغلبه الفرعونية على إسلامه أو عروبته»[2]، «وكل ما يعني شوقي هو أن يتخذ من الحديث عن حضارة مصر القديمة وسيلة لحفز الهمم»[3].

ومن الكتاب الذين آزروا الدعوة إلى خلق أدب مصري محمد زكي عبد القادر، ومحمد الأسمر، ومحمد أمين حسونة.. ولا يكتفي محمد محمد حسين بأسمائهم، وإنما يورد مقتطفات دالة على دعوتهم[4].

ولا شك في أن كثرة النصوص التي يوردها الكاتب تعين على صورة الحياة الفكرية في تلك الحقبة، بحيث يبدو من التجني - في نظرنا - أن يُرمى شوقي في لهجة ساخرة بأنه «موكل بالملوك يعظمهم، حتى القدماء منهم، وحتى للأجانب»[5] كما يقول باحث معاصر مستشهداً بقصيدة لشوقي منها:

حل سيزوستريس عهداً، وجلت في صباه الآياتُ والآلاءُ

فإنما يتحدث الشاعر عن حضارة مصر ليستحث الشباب، كما التفت أستاذنا محمد محمد حسين إلى فرعونيات شوقي[6] بعامة.

وكان الاعتماد على التاريخ «من أقوى الأدوات في استنهاض الهمم»[7]،

(١) «الاتجاهات» ٢/ ١٤٠.

(٢، ٣) «الاتجاهات»: ٢/١٤٩، ١٥٠.

(٤) «الاتجاهات»: ٢/ ١٤٣.

(٥) «أحمد شوقي وأزمة القصيدة التقليدية» ص ٣٥.

(٦) يراجع - مثلاً - «الاتجاهات الوطنية»: ٢/ ١٤٨، وعجيب في نظرنا أن يغفل صاحب «أزمة القصيدة التقليدية» عن المعاني الكبيرة، أو كما عنون شوقي قصيدته تلك «كبار الحوادث في وادي النيل» وفيها أبيات عن الدين وحماة الإسلام «الملوك الأعزة الصلحاء» من آل أيوب مثلاً، «الشوقيات»: ١/ ١٧ - ٣٣.

(٧) «الاتجاهات»: ١/ ١٠٠.

وبـدت طلائـع هذا الاتجـاه في شعر البارودي، ثم في شعر شوقي كمثل قصيدتـه التي وجههـا إلى روزفلت عقب زيارتـه لمصر عام ١٩١٠، وكان روزفلت قد مجد الاحتلال، وعارض حركة المطالبة بالدستور[١]، يقول شوقي:

وأنا المختصُّ بتاريخِ مصرَ   من يصُنْ مجدَ قومِهِ صان عِرْضا

لقد أنصف المؤلف شوقيًا ـ بوجه خاص ـ بنظرته العامة والمتعمقة لشعر شوقي، فهو إذ يمدح عباس حلمي فلأن عباساً كان قائداً للحركة الوطنية، وأخذ شوقي يديم النصح أن يعمل على حرية وادي النيل:

صاحبَ النيلِ في البريةِ إيهٍ   حرِّرِ النيلَ للبريّةِ وِرْدا

ولذلك كان شوقي أبغض رجال الحاشية إلى الإنجليز، ويدل على ذلك ما كان من كرومر لعباس في آخر لقاء بينهما قبيل رحيل كرومر أن يبتعد عن مصطفى كامل، وعلي يوسف، وأحمد شوقي، ويدل عليه أيضاً إبعادهم إياه عن مصر بعد خلع عباس[٢].

ويتـطلب الأمـر من وطـنية شوقي النـظر إلى شعـره الأخـلاقي والإسلامي[٣]، فهو يتحدث عن ترابط العالم العربي وتعاطف أبنائه[٤]، وفي ترحيبه بالأديب السوري أمين الريحاني حين زار مصر سنة ١٩٢٢م كان مما قاله:

اطلعْ على يمنٍ بيمنِكَ في غدٍ   وتجلَّ بعدَ غدٍ على بغدادِ[٥]

---

(١) «الاتجاهات»: ١/ ١٠٣، ١١١.

(٢) «الاتجاهات»: ١/ ١٦٤ «حاشية»، ويذكر أن عباساً تضعضع عزمه من بعد، ١/ ١٦٩، ١٧٧، ١٩٠، ١٩٥، ٢٢٣.

(٣) كما فعلنا في دراستنا «من حديث الشعر» ط. الإسكندرية ١٤٠٤هـ.

(٤) «الاتجاهات»: ٢/ ١٣٣.

(٥) «الشوقيات»: ١/ ١١٥ من قصيدة بعنوان: «على سفح الأهرام».

ولقد كان شوقي يمثُلُ بين ناظِرَي المؤلف في كل فصل من كتابه: «في الخلافة الإسلامية في الجامعة العربية، في الجامعة الإسلامية» ويُعَدُّ رثاؤه للشهيد البطل الليبي عمر المختار ١٩٣١، من عيون شعره[١] ومطلعها:

رَكَزوا رفاتَكَ في الرمال لواءَ يستنهِضُ الوادي صباحَ مساءَ[٢]

وبرغم أن الدكتور محمد حسين إنما يقرر الحقائق في هدوء علمي، إلا أن نزعة الباحث الدينية تسري في الكتاب هادئة حيناً، حادة في كثير من الأحيان، فالوطن والوطنية كلمات في وقت ما من مستحدثات الشباب الذي تعلم في أوربا[٣] حتى إن رشيد رضا ـ فيما ينقل عنه أستاذنا ـ ليقول في مناسبة ذكر محاسن الخديوي عباس: أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى في عرف هذا العصر بالوطنية[٤].

ورشيد رضا عند المؤلف من الدعاة المخلصين[٥] إذ يقول: «كان لنا جامعتان سعد سلفنا بالاعتصام بهما، وشقي خلفنا بالتفرق والاختلاف فيهما، جامعة علمية روحية وهي كتاب الله وما بينه من سنة خاتم النبيين، وجامعة سياسية عملية وهي الإمامة العظمى، وما بينها من سيرة خلفائه الراشدين وهدى السلف الصالحين، وهذه متممة للأولى ومنفذة لها»[٥].

إنه الدين فوق الوطنية أو العرين الذي تحتمي فيه الوطنية، أما الذين كانوا يبشرون بالقومية المصرية قائمة على الجنس لا على الدين فقد كانت دعوتهم صدى للاتجاه العالمي نحو فكرة القومية في القرن التاسع عشر[٦].

---

(١) «الاتجاهات»: ٢/ ١٥٩ «حاشية».

(٢) «الشوقيات»: ٣/ ١٧.

(٣) «الاتجاهات»: ١/ ٢٤٢.

(٤) «الاتجاهات»: ١/ ٤٩، ١٥٧.

(٥) «الاتجاهات»: ٢/ ١٥١.

(٦) «وكانت حرب أمريكا في سبيل استقلالها والثورة الفرنسية في مختتم القرن الثامن =

ويتجه النظر منه إلى تأثير التفكير الأوربي والنظم السياسية الغربية على الداعية إلى أن «سلامة المصريين في سلامة المحتلين»[1]، و «أن الوطن هو مركز المصلحة العامة للجماعة»[2] وهم يعنون المقيمين في مصر ممن استوطنوها.

«والـوطنية عنـد كتـاب حزب الأمة ومفكريه واضحة التأثير بمذهب التحـرر من ناحية، والمادية من ناحية أخرى، وكلا المذهبين كان له دعاة أقـوياء من المتفرنجين، يروجون له في العالم الإسلامي»[3] ثم يقول: «ولم يزالوا يحدثون المصريين عن المصلحة لينزلوا بالوطنية عن مرتبة العقيدة إلى درجة مادية تزيل عنها كل قداسة»[4] ومن جهة أخرى «يتهمون المصريين بالتعصب الديني، ويكررون هذه التهمة في كل مناسبة، وفي كل مناسبة، حتى توهم المصريون أن التعلق بالدين عيب... حتى توهم بعض السذج أن من سمو الخلق أن تحب الناس جميعاً حتى المهتدين منهم»[5].

إن فكـرة «التعصب» مما يلفت الباحث الديني، ولو كان موضوعه في الأدب، وهو ما يلفت إليه محمد محمد حسين في قصيدة شوقي «الأندلس

= عشر هي نقـطة البداية لهذه الحركة التي اتخذت شكلاً عنيفاً.. فقد رفضت هذه الدول أن تربط نفسها بعجلة وزارات الخارجية في الدول الكبرى التي تنطوي تحتها لتسوقها إلى الحرب حين تشاء» الاتجاهات: ١/ ٥٠، بتصرف.

(١) عنـوان مقال في افتتاحية المقطم ٢١ من يونيه سنة ١٩٠٧ للكاتب محمد وحيد، «الاتجاهات»: ١/ ٧٥.

(٢) «الاتجاهات» ١/ ٨٤، ٨٧، ٩٠.

(٣) «الاتجاهات»: ١/ ٨٧، ٢٤٢، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٨٩، ومذهب التحرير ما يطلق عليه الليبـرالية Liberalism سياسـة تقـوم على الاستقـلال الـذاتي للفرد، وحماية الحريات، والمذهب المادي Materialism يؤكد على الانشغال بالشؤون المادية بدلاً من الفكرية أو الروحية.

(٤، ٥) «الاتجاهات»: ١/ ٩٥، بتصرف يسير، ١/ ٢٠٠.

الجديدة» التي نظمها في إعلان تركيا الحرب في ٢٧ أكتوبر سنة ١٩١٢ على بلغاريا والصرب والجبل الأسود واليونان، وفيها ندد شوقي بالذين استغلوا الدين المسيحي في الانتقام من المسلمين الآمنين[١].

ويعلل الدكتور/ محمد محمد حسين لتأجج العاطفة الدينية وتعلق الناس بالفكرة الإسلامية بمهاجمة كرومر للمسلمين في تقاريره وفي كتابيه «مصر الحديثة» و «عباس الثاني»، اللذين ظهرا بعد مغادرته مصر، ويأتنف قائلاً: «والواقع أن المنادين بفكرة الجامعة الإسلامية والرابطة العثمانية لم يكونوا جميعاً من المؤيدين للنفوذ التركي في مصر، فمن بين هؤلاء الترك المستعربون أمثال شوقي ويكن والكاشف، الذين تدفعهم إلى تأييده رابطة الدم وعاطفة الحنين للأصل، والشعور بالانتماء للسادة الحاكمين»[٢].

ثم يقول: «ومن بين المؤيدين للنفوذ التركي وقتذاك نفر من الزعماء المصريين الذين يؤمنون بأن لمصر كياناً مستقلاً، ولكنهم يتخذون ذلك سبيلاً لمناوأة الاستعمار. . .»[٣].

ومفاد ذلك عندنا أن الدين أساس التجمع الوطني أو القومي في مواجهة المستعمر، وهو دافع قوي «إلى الحرية وإلى هدم صرح الظلم»[٤] وهو ما كان مفهوم الوطنية أوائل القرن العشرين الميلادي.

وقد يخفت صوت الدين عند بعض الكتاب ثم يعود داوياً، ومن هؤلاء محمد حسين هيكل في كتابه «في منزل الوحي» يسجل في مقدمته ما يُرمى به أصحاب الدين المستمسكين به من رجعية يقول: «وأقف هنا لأدفع زعماً حسب الذين زعموه أنه مغمزٌ غمزوني به بعد تأليف كتابي «حياة محمد»،

(١) «الاتجاهات»: ١/ ٤١.
(٢) «الاتجاهات»: ١/ ٤٥.
(٣) «الاتجاهات»: ١/ ٤٧.
(٤) «الاتجاهات»: ١/ ٦١.

حسب هؤلاء أنني انقلبت بكتابة السيرة رجعيًا، وكنت عندهم قبلها في طليعة المجددين»[1].

إنها حرب الألفاظ الدائرة بين فريقين يوردها صاحب «الاتجاهات الوطنية» ما سنحت المناسبة تسجيلاً للواقع، وكشفاً لمخطط الهدامية، الرجعية والتقدم، أو المرونة والتزمت»[2].

وبين الاتجاهات المختلفة بين رفض تام لما يصدر عن الغرب، وبين الأخذ بمظاهر الحضارة الغربية جميعاً يرى المؤلف غربلة ما ينقل عن الغرب «والتمييز بين ما ينفعنا منه وما يضرنا «وهو لذلك يستحسن مقالاً لعبد الوهاب عزّام في هذا المعنى نشر ١٩٣٢م[3]، وآخر لمصطفى صادق الرافعي[4]، ويخلص إلى أن الصراع الدائم بين الحق والباطل لا ينكشف آخر الأمر إلا عن النفع والخير[5]، وأن «الأمم التي تكتب لها العزة والبقاء هي التي تستطيع تقاليدها أن تنتصر آخر الأمر»[6].

ومحمد حسين يأخذ على الباحثين الرجوع إلى المستشرقين «فيما لا يوثق

---

(١) «في منزل الوحي»: ص ٢٢ ط. مصر. القاهرة ١٩٥٧م.
(٢) «الاتجاهات»: ٢/ ٢٠٠.
(٣، ٤) «الاتجاهات»: ٢/١٩٦، ١٩٩، ٢١٢.
(٥) «الاتجاهات»: ٢/ ٢٠١ وهو في ذلك يستشهد بقوله تعالى: ﴿فأمّا الزبدُ فيذهَبُ جفاءً وأمّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض﴾.
(٦) «الاتجاهات» ٢/ ٢٠٢، وقد رأينا أستاذنا في الستينيات لا يزال يلبس طربوشاً، وكأنه يشير ذلك إلى أن أوربا لا يمكن «أن تدخل تحت طربوشه» بتعبير الرافعي في المقال الذي استشهد به المؤلف، وقد نشر في الجزء الثالث من وحي القلم: ومؤلف الاتجاهات الوطنية يأخذ على سلامة موسى قوله: «إن اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب، ويجعلنا أمة واحدة «وآنا» هي رمز الحضارة» ٢/ ٢١٦.

بهم به»[1] وللدكتور/ محمد محمد حسين لفتات لغوية لا تخلو من وجاهة، فهو يسجل ظهور كلمة في المعجم الشعري، وهي كلمة «الشعب» اقترن ظهورها بظهور الحركة الوطنية بدل كلمة الرعية كما في قول الغاياتي:

إنّما الشعبُ الذي يرجُو العُلا ليسَ يرضى من أعاديهِ اهتِضاما
كُتِبَ النصرُ لشعبٍ ناهضٍ في سبيلِ المجدِ لا يخشى الحِماما[2]

وكلمة «لا ديني ترجمة لكلمة إنجليزية جرى الناس على ترجمتها بـ (علماني) أو (مـدني) وهي تسميات مهذبة لا دينية، تحاول أن تستر بشاعتها بأسماء سائغة مقبولة»[3].

وكان دفاع الدكتور/ محمد محمد حسين عن اللغة العربية نحواً وكتابة دفاعاً عن العروبة والإسلام في مواجهة من يقول - مثلاً - إن اللغة الفصحى «تبعثر وطنيتنا المصرية، وتجعلها شائعة في القومية العربية، فالمتعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب، ويعجب بأبطال بغداد بدلاً من أن يشرب الـروح المصرية ويدرس تاريخ مصر»[4]، ويرى أن الـدول الغـربية «إذا نجحت في سلخ الدول العربية من عروبتها، فقد سلختها من إسلامها»[5].

وبعد فقد يبدو أستاذنا عنيفاً في تقييم بعض الرجال في مؤلفاته بعامة، وهـو ما لا يبرِّىء نفسه منه إذ يقول في مقدمة الطبعة الثالثة من «حصوننا مهددة من داخلها»: «وبعضهم ممن لم أكن قد عرفته ثم التقيت به من بعد،

---

(١) كما رجع صاحب «الإسلام وأصول الحكم» إلى سير توماس أزولد في أنه لا سند في القرآن لضرورة إقامة الخلافة، وفي تشنيعه بالخلفاء في كل العصور الإسلامية.
«الاتجاهات»: ٢/ ٨٠.
(٢) «الاتجاهات»: ١/ ٧٠.
(٣) «الاتجاهات»: ٢/ ٢٠٨ «حاشية».
(٤) «الاتجاهات»: ٢/ ٣٥٢.
(٥) «الاتجاهات»: ٢/ ١٣٣.

وعرفت فيه نواحي من العلم والفضل، ومع ذلك فالله يشهد أن ما كان في هذه المقـالات من حب أو بغض، كان خالصـاً لوجه الله لم تشبه شائبة من شهوة أو هوى».

وقـد رأيت أستـاذي في قاعـة المحاضرات يحمل ما نسميه ترجمة عن الإنجليزية «نوتة» يدون فيها اعتراضنا على بعض ما يقول في محاضرة ما، ثم تحين المحاضرة التالية ليقول لتلميذه ـ صاحب هذه السطور ـ : أصبت.. ونحب أن هذا شأنه في التحري والدقة العلمية في كتبه.

وقد تتطلب الدقة العلمية كلمات للاحتراس كقوله: ـ في رأيه ـ في زعمه ـ غير أن هذه الكلمات في مؤلفات محمد محمد حسين تصدر أيضاً عن تجربة خاصة، إذ كان موضع الألم منه أن ينشر بحثه «الهجاء والهجاؤون» خلواً من تلك الكلمات في بعض المواضع في طبعته الأولى، فإذا هو يصححها لنا نحن تلامذته بشيء كثير من الندم على ما فرط في هذه الطبعة[1]. نفعنا الله بعلمه، فالتلميذ هو أستاذه والزمن.

* * *

(١) ذكر ـ رحمه الله ـ أنه أصلح أخطاء الكتاب بقدر ما وسعته الطاقة التي ظهرت منذ سنة ١٩٦٩ «حصوننا مهددة من داخلها» ص ١٣.

مناهج اللغة والدين في فكر الدكتور محمد محمد حسين

بقلم الدكتور/ صالح حسن اليظي

ليس لمسلم أو عربي يرى انتماؤه لأصوله الدينية والثقافية والاجتماعية إطاراً جامعاً لكيانه الآني والآتي أن ينسى الموقف المبدئي الرائد للمرحوم الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين من تلك القضية، ولا أعتقد أن مثقفاً عربيًّا واعياً تابع في الآونة الأخيرة موجات الهجوم الاستغرابي الشرس على رموز الأصالة العربية الإسلامية إلا وشخصت بواعيته الأسس المنهجية والفكرية بل وأقول التمثل الحضاري المتكامل لماهية العروبة والإسلام كما كان في فكر ووجدان الأستاذ الجليل رحمه الله.

ومن جماع تلك المنابع الأصيلة للكيان العربي المسلم، نهل كذلك عملاق التراث والأصالة والفن العلامة محمود محمد شاكر أطال الله في عمره، وأنا في الحقيقة لا أدري ولا أحسب أن غيري من الباحثين المنتدين هنا يدري سبباً موضوعيًّا يدفع الأستاذ الكبير محمود شاكر، وهو صاحب الآفاق العلمية العالمية الجادة، والآخذ بالمنهجية الرصينة المتمثلة في أبحاثه التراثية، إسلاماً وأدباً وثقافة وتحقيقاً بل وإبداعاً شعريًّا، أقول: لا أجد سبباً موضوعيًّا يدفع بهذا الحجم العلمي والفني الهائل إلى ضبابية التعتيم الإعلامي طيلة عقود أربعة إلاّ هذا الموقف المبدئي الملتزم بقيم الأصالة والعروبة والإسلام في تشكيل الشخصية الثقافية والفكرية للإنسان العربي المعاصر، وأحسب أن جائزة الدولة التقديرية التي تأخرت كثيراً عن الأستاذ شاكر، ثم جائزة الملك

فيصـل الغـالمية التي استحقهـا منفـرداً تقـديراً لقيمتـه الفكـرية والعلمية والإبداعية، وخاصة عن درته الفريدة في المتنبي حياة وإبداعاً، بل وأحسب كذلك أن في إقامة ندوتنا اليوم حول فكر الأستاذ الدكتور المرحوم محمد محمد حسين، والمشارب والاهتمامات الثقافية والفكرية عند الرجلين كليهما تتمحور حول العروبة والإسلام والتراث، أحسب أن في ذلك كله دلائل وتنبيهات لدعـاة المسـخ والتغـريب أن ينتهـوا، وإلى مفكـري الأمـة وحماة عروبتها وإسلامها والمدافعين عن تميز كيانها وشخصيتها أن يتنبهوا.

وفي اعتقادي الشخصي أنه لا شيء يقطع بصواب موقف أستاذنا المرحوم محمـد محمـد حسين من مناهج اللغة والدين قدر التدني الحالي في مستوى الدارسين والمدرسين في مراحل التعليم كافة، والذي لا يماري فيه إلا مكابر، ونظرة فاحصة إلى تلك الظاهرة الخطيرة تكشف عن أن العلة الأساسية في ذلك إن هي إلا التركيز في الكليات المنوط بها الآن إعداد المسلمين، على مواد واهية الصلة بواقع الإنسان العربي المسلم ثقافيًا ووجدانيًا وواقعيًا، وفضلاً عن أن التركيز الذي أشرت إليه آنفاً يلازمه بالضرورة ابتسار الاهتمام بالمواد الأكاديمية والتراثية في تخصص اللغة العربية، وأنني أسمح لنفسي بأن أقرر بأمـانـة يحاسبني عليها الله أن الكثرة المطلقة ممن حاورتهم من طلاب هذه الكليات يئنون لعجزهم عن التواصل الفكري والروحي بأغلبية تلك المواد المقحمة، والتي تمتُّ إلى مجتمعات غربية أو شرقية غريبة يفصلنا عنها محيطات وبحـار، فضلاً عن تضاد العادات والتقاليد والأعراف والعقائد وموروثات التراث والوجدان والواقع البيئي المعيش نفسه، ويقرر الطلاب في غير لبس أن جل جهدهم يصرفونه مرغمين إلى تلك المواد التي لا يتواصلون معها، والتي لا يجمعهم بها إلا شعور الغربة والاستغراب، على حين لا يبقى من الجهد إلا أقله يتوجهون به إلى مواد دراستهم الأساسية التي يدركون ـ دون لبس أيضاً ـ أنها بغير بديل عدتهم في حياتهم العلمية والعملية.

وأعتقد أيها السادة أنكم تشاركونني الرأي في أن الرغبة الحميمة في تجنب هول هذا الواقع العلمي المهترىء القبيح الذي بثنا وفي وقر فادح منه الآن، كانت وراء الإصرار النهائي لدى الدكتور محمد محمد حسين في أن نعض على تراثنا وأصالتنا وديننا وعروبتنا بالنواجذ، وفي الأهمية المطلقة في أن تكون مناهجنا في دراسة اللغة والدين مرتبطة بأصولنا الخصبة ومصادرنا المعطاء، وهي بالتأكيد لا تنبع من فراغ، ولا تنتهي إلى عدم، بل لا يملك منزَّهٌ عن الهوى إلا أن يُقر بأن القرآن والسنة والتراث العربي بفروعه المختلفة وفي عصوره المزدهرة تشكل الأسس الكيانية للإنسان العربي المعاصر، التي لا يجوز ولا يمكن أن يتصور بناؤه في حاضره ومستقبله إلا عليها.

ويمكننا أن نرصد الركائز التي قام عليها فكر الدكتور محمد محمد حسين فيما يتصل بمناهج اللغة والدين وأحوال المتلقين جميعاً على النحو التالي:

أولاً ـ في التعليم العام.

١) عارض الدكتور محمد محمد حسين اختلاط الجنسين في الدراسة، ويرى أن أصحاب تلك الدعوة قد اكتسبوا مواقع جديدة تجعل المرحلة الابتدائية ست سنوات يقول: «وإذا الاختلاط يصبح حقيقة واقعة بطريق ملتو خفي لم يكد يتنبه إليه أحد، بعد أن طالت المرحلة الابتدائية إلى ست سنوات، يتجاوز فيها الذكور والإناث، ومن المعروف أن الإناث في بلادنا يدخلن سن المراهقة في وقت مبكر لا يتجاوز السنة الحادية عشرة في كثير من الأحيان، بل لقد أصبحنا أمام بعض المدارس المختلطة في مرحلة التعليم الإعدادي، بعد أن كشفت تجربة الاختلاط في الجامعة عن مآسٍ لا يستطيع أن يتجاهلها إلا مكابر أو مدلس».

---

* استخلصت فكر الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين في تلك القضية من كتابه «حصوننا مهددة من داخلها»، الطبعة السادسة سنة ١٩٨١ ـ مؤسسة الرسالة بيروت ـ لبنان.

٢) وقف الدكتور محمد محمد حسين موقفاً صلباً ضد دراسة اللهجات العامية، وربط بذلك كل المحاولات التي رأى فيها فصلاً للغة عن الدين، يقول في ذلك: «كان الشعوبيون يروجون اللهجات السوقية المحلية التي يسمونها العامية بمختلف الأساليب، وكان أعداء العروبة والإسلام يتحايلون في انتزاع الدراسات العربية من حضانة الدين والقرآن» ونراه يهاجم الدكتور طه حسين في هذا الخصوص إذ يقول في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر»: «فإن اللغة العربية ليست ملكاً لرجال الدين يؤمنون وحدهم بها، ويقومون وحدهم من دونها، ويتصرفون وحدهم فيها، لكنها ملك للذين يتكلمونها جميعاً من الأمم والأجيال، وكل فرد من هؤلاء الناس حر في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المالك متى استوفى الشروط التي تتيح له هذا التصرف».

ويقيِّم الدكتور محمد محمد حسين هذا الكلام تقييماً نابعاً من تصوره العام لحتمية الربط بين الثقافة المعاصرة للإنسان العربي المسلم وبين التراث، والدين لب اللباب من التراث حين يقول في الرد عليه: «والغرض الذي يرمي إليه صاحب هذا الكلام من قطع الصلات التي تربط الدراسات العربية بالدراسات الإسلامية هو أن ينزع عن العربية قداستها، ويحرمها من حماية الدين وحضانته، ليكشفها أمام أعدائها، ويعينهم على الإجهاز عليها بعد أن يحررها من كل نصير أو معين».

٣) ومن منطلقه الأساسي في أن الخطأ والخطر يتجسدان بقدر ابتعاد العلم والثقافة عن مصادر الأصالة في اللغة والدين، رأيناه يهاجم الدعوة إلى تأليف معاجم محلية لا يثبت فيها إلا ما بقي من لهجات العرب حيًّا في عامية كل أقليم، ويهاجم الدعوة إلى إعادة النظر في تبويب النحو وتدوينه من جديد، ويشير في هذا الشأن إلى ما تم تنفيذه في كتب القراءة المدرسية المشهورة بكتب شرشر، وفي كتب النحو الجديد التي تولى إبراهيم مصطفى

توجيهها، وينبه إلى أن المؤتمر الأول لمجامع اللغة العربية قرر حاجة تلك المشاريع إلى مزيد من الدرس والمراجعة والتمحيص.

كما نرى الأستاذ يشير بالإدانة إلى قرار كان قد اتخذه قسم اللغة العربية بإحدى كليات الآداب بإنشاء شعبة للدراسات العربية الحديثة، أخلى منها دراسة النحو والصرف والبلاغة والشعر العربي ونصوص الفصحى والأدب العربي والتاريخ الإسلامي ودراسة القرآن والحديث، وجعل مكان ذلك كله «دراسات لغوية حديثة»، و«التطور اللغوي العربي في العصر الحديث»، و«اللهجات العربية الحديثة» و«الأدب الشعبي»، و«المذاهب الكبرى في الآداب الأوربية ومدارس القصة»، و«تطوير الفكر الإسلامي في العصر الحديث».

ويضع الدكتور محمد محمد حسين ضمن الاتجاهات التي يراها تهدف إلى ضرب الشخصية الإسلامية بعد تمييعها ومسخ خصائصها تلك الدعوة التي نادى بها أحد أعضاء لجنة التربية الدينية بوزارة التربية والتعليم، يقترح إنشاء شعبة للدراسات الإسلامية في كليات الآداب، لتخريج مدرس مرن للدين الإسلامي، يستطيع أن يساير الزمن، ويهاجم في هذا المجال الحملة التي شُنّت على علماء الشريعة الإسلامية، أو من سُمّوا برجال الدين الإسلامي، وعلى الأزهر، متهمة إياه بالتخلف عن ركب الحياة، ولا بد لنا في هذا الشأن أن نشير إلى ما تم بالفعل مما سمي بتطوير الأزهر، والتي باتت سلبياته ومثالبه لا تخفى على متأمل، ولعل أخطر وأسوأ نتائجه أن ضربت الشخصية الدينية والعلمية المتميزة للتعليم الأزهري دون أن يكتسب خيراً منها كما زعم الزاعمون آنئذٍ.

إن هذه الأساليب وأضرابها يسميها الدكتور محمد محمد حسين أساليب الغوص بالداخل، ثم نراه يفصل القول في كتب القراءة الجديدة التي وضعتها لجنة يوجهها الدكتوران القوصي والعريان، والتي تدوولت ثم ألغيت بعد أن

ثبت فشلها وخطرها، موضحاً أن ما احتوته من العامي الغث ذي المضامين الهابطة، يمكن أن يحل محله غيره من الفصيح السهل الذي هو قدر مشترك بين سائر العرب وأصحاب الثقافات العربية من المسلمين، ثم نراه يتساءل تساؤلاً حاسماً لا نملك إن أن نقر المغزى البلاغي والكامن من ورائه حين يقول: «أين يتعلم صبية العرب وشبابهم فصحاهم الجامعة لشملهم إذا لم يتعلموها في المدارس؟». ويقول كذلك: «وهم يعلمون حق العلم أن هذه الكلمات الملتقطة من أسواق مصر وطرقاتها، ليست عامة في بلاد العرب جميعاً، فهي مجهولة في بعضها، وهي مستعملة بمعنى آخر في بعض آخر، لأن الفصحى التي تجمع العرب والمسلمين هي فصحى قريش بخاصة التي نزل بها القرآن، والتي دوِّن بها الحديث والفقه والأدب وكل ما أثمرته الحضارة العربية والإسلامية من علوم وفنون، وهي أفصح لهجات العرب وأسلمها دون نزاع، فرضتها صلاحيتها ونشرتها قبل أن ينزل بها القرآن، فكان العرب على اختلاف قبائلهم يكتبون شعرهم بها، ولا يستعملون لهجات قبائلهم إلا في ضرب من ضروب الأدب المحلي، وهو الرجز، فهذه الكتب الجديدة التي يراد بها تقرير لغة جديدة للتدوين، وإحقاق باطل فشل أصحابه في إقناع الناس به رغم ما بذلوا له من دعاية طوال نصف قرن أو يزيد، تريد في ضحى القومية العربية أن ترد العرب إلى ما قبل الجاهلية».

ويستمر الدكتور محمد محمد حسين في توضيح خطورة ذلك الاتجاه المشبوه وأضرابه على الكيان الحضاري للشخصية العربية، بل على فكرة القومية العربية ذاتها، فيقول: «وهناك حقيقة ينبغي أن لا نغفل عنها أو نهملها، وهي أن الشخصية العربية هي القاعدة التي تستند إليها القومية العربية، والشخصية العربية تقوم على تشابه أذواق العرب وملكاتهم، وهذا التشابه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتراثنا الثقافي العريق، وبعمالقة الشعر والأدب، بخاصة الذين سجلوا مثلنا العليا إيجاباً وسلباً في شعر الحماسة والأدب والرثاء

والهجاء وفي الخطب وفي الرسائل بمختلف صنوفها، بين ديوانية وإخوانية ووصفية ووعظية وأخلاقية، فإهمال أدبنا القديم وتوجيه أكثر العناية إلى الأدب الحديث بل التافه منه في الأعم الأغلب، وتجنب ما كان منه على منوال القديم جزالة وروعة وفخامة أسلوب واحتفالاً بالمعاني الكبار، خليق أن يعين على تدعيم ما يدبره بعض المفسدين، فيسلكون إليه مختلف المسالك، ويعالجونه بشتى الأساليب حين يسعون إلى فصل حياتنا الراهنة والمستقبلية عن مصادرها القديمة حتى تتفرق جماعتنا، ويتشتت شملنا، وحتى لا تكون أخلاقنا امتداداً لأخلاق آبائنا، ولا تكون أذواقنا امتداداً لأذواقهم، ولا تكون لغتنا وأساليبنا امتداداً للغتهم وأساليبهم، وحتى لا يكون إسلامنا امتداداً لإسلامهم، فإذا نجحت هذه العصابة في أن يجعلوا (المجتمع العصري) الذي يتحدثون عنه مقطوع الصلة بماضينا في الدين وفي اللغة وفي العادات وفي الذوق الفني وفي المزاج وفي التقنين الخلقي.. فأي جامعة يمكن أن تجمعنا عند ذاك؟ وأي طابع يمكن أن يميزنا عن غيرنا من سائر خلق الله ويجعل لنا الحق في أن نقول: إننا قوم عرب؟ ما أيسر أن نكون عند ذلك تبعاً لسادة الشرق أو الغرب، وذيلاً لكائن من كان ممن يريد أن يستلحقنا كما كان السادة يستلحقون العبيد في عصور الرق».

ثم يكشف الأستاذ فساد صنيع ما سمي آنئذ بتيسير النحو، ويرى فيه نمطاً من الهدم يُفضي إلى أن تصبح صحفنا بيضاء تقبل أن يكتب فيها أي شيء.. ويثبت بالدليل الحاسم بطلان اعتبار ذلك الاتجاه تيسيراً، لأنه في الحقيقة على خلاف ذلك.. يقول: «زعم أصحاب القواعد الجديدة: أن قواعد النحو التي صنعها اثنا عشر قرناً سخيفة معقدة، وزعم لهم صاحبهم أنه سيلخص لهم هذه القواعد في كلمات، فقسم الكلام إلى مسند ومسند إليه وتكملة، وسمى كلامه هذا تيسيراً، والوصف الصحيح له أنه تعقيد، لأن الاصطلاحات المتداولة ـ ولا أقول القديمة ـ أدنى إلى عقل الناشىء

وتصـوره، ومن الذي يخطىء في فهم مدلول كلمة «فعل» و «فاعل»؟ إن الأمي الجـاهل الساذج الذي لا حظ له من الثقافة النحوية يستعمل هذه الكلمات بمـدلولاتها النحوية في حديثه اليومي المألوف، والخفير والشرطي يسـأل: من «الفـاعل»؟ ويقول: قُبض على «الفاعل»، ويقول: «الفاعل معلوم»، أو «الفاعل مجهول» «والفلاح في حقله يقول: ذا «فعل» الكرام، وذا «فعل» اللئام، ويسأل: ما «الخبر»؟ هذه هي المصطلحات التي استبدلوا بها المسند والمسند إليه، فسموا الفاعل ونائب الفاعل والمبتدأ مسنداً إليه، وسموا الفعل والخبر مسنداً، وإدراك معنى هاتين الكلمتين يحتاج إلى تصور الإسناد، وهو فكرة عقلية لا يمكن بحال أن توصف بأنها أقرب إلى أفهام الصبية من المصـطلحـات الجـارية المتـداولة». . على أن أصحاب التيسير المزعوم قد احتاجوا بعد ذلك إلى تفصيل المنصوبات وتبيينها، ولم يروا إطلاق اسم «التكملة» عليها جميعاً وافياً بالغرض، فتكلموا عن «التكملة بالزمان»، و«التكملة بالمكان»، و«التكملة بالحال»، و«التكملة بالمفعول»، فما بسطوه؟!».

ويستمـر الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين في الكشف عن مواضع الغموض والاضطراب في التسميات الجديدة لمسميات مشهورة ومستقرة في الأذهان وفقاً لأسمائها التقليدية، ويبطل الاحتجاج بأن علم المعاني قد اتكأ على هذه المصطلحات، لأن كل علم له طبيعته، ومسلم أن المصطلحات تختلف باختلاف العلوم والفنون.

والـذي لا شك فيه الآن أن أصحـاب تلك الاتجاهات قد حرثوا في البحر، ولم يقبضوا إلى على الريح، الأمر الذي يقطع بأن الرجل ما استهدف بوقفته سوى الحق الأبلج الذي كان وراء الغيورين على أصالتهم، وأنه لا يصح في النهاية إلا الصحيح.

ثانياً ـ في الجامعة.

يبين الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين أن محاولات المسخ والتغريب لم تكن قاصرة على أوساط الناشئة والمتعلمين، بل كانت متجهة بعزيمة أشد إلى ميدان إعداد معلم اللغة العربية ومعلم الدين، ويقرر أن ذلك يدخل في إطار الخطط والأساليب التي استهدف بها الإنجليز إضعاف الأزهر «لأنه كان يصبغ التعليم بالصبغة الإسلامية في مصر والبلاد العربية والإسلامية، وقد هدفوا إلى عزل الأزهر عن الحياة العامة، وحصر أبواب الرزق أمام خريجيه في خدمة المساجد».

والصلة عند الدكتور محمد محمد حسين موجودة بين اتجاهات التمييع والمسخ هذه، وبين كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» الذي كتبه طه حسين في أعقاب معاهدة عام ١٩٣٦، والذي أصبح مكانه من كل حركات الهدم التي يسمونها إصلاحاً مثل مكان الدستور من القوانين»، ثم لا يلبث أن ينبه إلى ما اقترحه الدكتور طه حسين في كتابه هذا من إنشاء معهد لدراسة اللهجات قديمها وحديثها، وإنشاء معهد آخرللدراسات الإسلامية يلحق بكلية الآداب، ولم يتهيأ لأي من الاقتراحين فرصة التنفيذ، ثم تجددت الدعوة إلى الاقتراحين مرة أخرى باقتراح إنشاء شعبة الدراسات العربية الحديثة بقسم اللغة العربية بآداب الإسكندرية، وإنشاء معهد للدراسات الإسلامية في كل كلية للآداب بالجامعات المصرية، ويربط الدكتور محمد محمد حسين بين هذين الاقتراحين وبين مؤتمر للثقافة الإسلامية عقد في صيف عام ١٩٥٣ بدعوة من جامعة برنستون الأمريكية، ودعي إليه مندوبون من مختلف البلاد الإسلامية، واشترك معهم عدد مساو من الأمريكيين بعضهم من وزارة الخارجية، وبعضهم من المبشرين، وفريق من موظفي شركات البترول.

وفيما يتصل بمعهد الدراسات الإسلامية المقترح، كان يفترض أن تدرس

«سيكيولوجية الدين»، و «التاريخ الديني والفكري للبشرية قبل الإسلام»، و «ما كان لمصر وعلمائها بين الأمم الإسلامية من آثار علمة خالدة»، و «النظم الدينية والأخلاقية المقارنة».

ويرى الدكتور محمد محمد حسين أن الصلة واضحة بين هذا المشروع وبين مشروع طه حسين من ناحية، وبينه وبين ما ألقي في مؤتمر الثقافة الإسلامية السالف ذكره من ناحية أخرى «فهو قريب الصلة بما جاء في كلام الإسماعيلي الهندي آصف علي فيظي عن الإسلام الهندي الحديث المتأثر بالمذاهب الغربية، والتي أنشئت جامعة عليكرة «الكلية المحمدية الإنجليزية» لنشره وترويجه، كما يذكرنا بما زعمه من أن التصور الأساسي للدين لا يمكن المحافظة عليه سليماً إلا بإعادة تفسيره وإعادة تقريره في كل عصر وفي كل مرحلة من المدنية، وبدعوته إلى الاستفادة من الدراسات الحديثة في علم النفس ومن الفكر الأوربي والفكر البروتستانتي، والتفكير المدرسي المسيحي، والتفكير اليهودي».

ثم يقول: «ولعل له صلة مع ذلك كله بمقررات اللجنة الدائمة للتعاون الإسلامي المسيحي التي عقدت في بحمدون عام ١٩٥٤، وفي الإسكندرية عام ١٩٥٥، كما أن الحديث عن سيكولوجية الدين وثيق الصلة والشبه بكلام القسيس الأمريكي ميلر بروز، الذي طالب فيه بوضع تجربة الدين وتجربة النبوة والمعجزات والصلاة والحياة الآخرة موضع البحث، وإخضاعها لقواعد علم النفس الحديث، وهو من ناحية أخرى استجابة لدعوة القسيس الأمريكي أيضاً هارولد سميث الذي قال: إن وجهتي في هذا المقال هي أن أستعرض بعض الاتجاهات الحديثة، وأن اقترح طرقاً لدراسة النظرية الإسلامية المهمة في الإنسان. . ولا شك أن القيام بهذه الدراسة على وجهها أمر متروك لعلماء المسلمين أنفسهم».

ثم يؤكد الدكتور محمد محمد حسين على الأبعاد الخطيرة لهذا الاتجاه

فيقول: «وغير خاف ما تنطوي عليه سيكولوجية الدين من مفاهيم، أولها وأبـرزهـا أن الدين ظاهرة نفسية ليس لها وجود خارجي حقيقي، لأن من المعروف أن هذه السيكولوجية ترد كل هذه التصرفات إلى مصدر مجهول في أعماق النفس البشرية يسمونه العقل الباطن، ولا أدري ولا يدري أحد أين هو على وجه التحديد، ولكنه في داخل الإنسان على كل حال وليس خارجه، ليس وحياً، وليس تنزيلاً، ويقول المبشر ميلر بروز: إن (تجربة النبوة) يمكن أن تلاحظ وتدرس بنفس الطريقة وإلى نفس الدرجة التي يمكن بها ملاحظة التأثيرات الذوقية والوجدانية ودراستها. ويقول: يستطيع العالم أن يشير إلى أن التجارب الدينية ـ منظوراً إليها في ضوء الظواهر السيكولوجية ـ لا يمكن تمييزها من أوهام الحس».

وبديهي أن هذه المنطلقات في دراسة الدين بعيدة كل البعد عن جوهر الإسلام وطبيعته، وما استقر في عقيدة المسلمين وأذواقهم وأفكارهم وطرقهم في تناوله ودراسته.

وفيما يتصـل بالمشروع الآخـر الذي كان مقترحاً بدوره، وهو المتصل بالمناهج الجديدة للدراسة في قسم اللغة العربية بجامعة الإسكندرية، فإن برامجـه تقـوم على التفرقة الأساسية بين مرحلتين من مراحل الأدب العربي ودراساته، فالمرحلة الأولى تشمل الأدب العربي ودراساته منذ فجره إلى بداية القـرن التاسع عشر الميلادي، أما المرحلة الثانية فتقتصر على ما يلي ذلك باعتباره مرحلة مستقلة تختلف موادها وأسلوب الدراسة فيها وأهدافها عن المرحلة السابقة، والمنهج يسمي المرحلة الأولى «الدراسات العربية في مرحلتها الكـلاسيكية» أو يسميهـا «الدراسات العربية القديمة» بينما يعرف المرحلة الثانية ويصفها بقوله: «الآداب العربية في نهضتها الحديثة منذ القرن التاسع عشر، ومـا كان للفكـر العـربي من اتصال وتأثر بالثقافة الغربية»، وقيل: ليتخصص الطالب في إحدى هاتين المرحلتين يدرس في سنتيه الأولى والثانية

دراسة عامة يتعرف فيها لأركان الدراسات العربية في مرحلتها الكلاسيكية، ثم يخير بعدها بين متابعة الدراسة في شعبة الدراسات العربية والشرقية القديمة، أو متابعتها في شعبة الدراسات العربية الحديثة.

ويوضح الدكتور محمد محمد حسين أن الدراسة في الشعبة المقترحة الأولى كانت مشوبة بالنقص والانحراف، إلا أن السوء الأكبر كان يتمثل في الشعبة الحديثة «فهي تسقط من حسابها كل العلوم العربية نحوها وصرفها وبلاغتها ونصوصها الفصحى شعراً ونثراً، كأن ذلك كله ليس له وجود، وليس له آثار، وليست لنا به حاجة منذ القرن التاسع عشر الذي حصرت الشعبة دراستها فيه وفيما يليه».

ويؤكد الدكتور محمد محمد حسين أن تلك المناهج وأضرابها لا تهدف إلا إلى فصل حاضرنا ومستقبلنا عن ماضينا، واستعراض المواد المقترحة للدرس يُثبت بما لا شك فيه ما يقرره الدكتور محمد محمد حسين من أنها تخلو خلوًّا تامًّا من درس واحد في النحو أو الصرف أو البلاغة أو القرآن أو الدراسات الإسلامية أو الأدب العربي السابق على الحملة الفرنسية، ويترتب على هذه الظاهرة الخطيرة أمران خطيران، أولهما: عدم صلاحية المتخرج في هذه الشعبة لتدريس اللغة العربية التي يجهل نحوها وصرفها وأدبها وبلاغتها، ليس هذا فحسب، بل إنه سيكون حرباً على العربية، ومعول هدم يعمل فيها، لأنه إنما سئل عن شيء مما يجهله غطى جهله بالتهكم بالعربية وقواعدها وأساليبها، وسيكون من آثار ذلك أن ينشأ جيل من الناس لا يقيّم العربية ولا يتذوقها، فإذا نعق ناعقٌ من بعد بأن إعراب أواخر الكلمات لا داعي له، وبأن عربية القرون الأولى ميتة لا وجود لها في الحياة، فسوف يجد هذا الناعق لصوته صدى في عقول ذلك الجيل من الضحايا، الذين ألقاهم سوء حظهم بين أيدي هؤلاء المعلمين، هذه واحدة، أما الأخرى: فهي أن هذه البرامج تهدد الدراسات العربية التي يريد المنهج أن

يسميها «كلاسيكية»، لأن بقاءها يصبح مرهوناً بأهواء الشباب الذي تستهويه هذه البدعة، فينصرف عن دراسة لغة القرآن ولغة الآباء والأجداد ولغة العرب الجامعة لشتاتهم إلى هذه الدراسات التي تحاول أن تربط حاضرنا ومستقبلنا الأدبي بالغرب، في الوقت الذي تقرن فيه تراثنا الأدبي الحي العريق بالآداب السامية الميتة، آداب السريانية والعبرية، إذ يجعلها جميعاً في شعبة واحدة هي «شعبة الدراسات العربية والشرقية القديمة».

ولئن كان جل هذه السلبيات والمخاطر الحقيقية قد بقي في حيز الاقتراحات والاحتمالات دون أن يجد طريق التحقيق الفعلي، فالذي لا شك فيه أن الموقف المبدئي الثابت والشامخ للأستاذ الدكتور محمد محمد حسين من قضية التراث والأصالة، وحتمية أن تنبع مناهج اللغة والدين في التعليم العام والجامعي من قيم الإسلام والعروبة كي تحصن كياننا الإنساني ضد محاولات الهدم والتغريب والتشويه.

لا شك بأن هذا الموقف المبدئي الثابت والشامخ قد أسهم إسهاماً متميزاً لا بد أن يذكر بكل الفضل والتقدير في إنجاز ذلك.

* * *

خصومات محمد محمد حسين في سبيل الدين واللغة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: ـ

فموضوع «الخصومات في سبيل الدين واللغة» ذو أهمية كبيرة لمن يحاول دراسة الآثار التي خلفها أستاذنا الدكتور محمد محمد حسين رحمه الله، وقد جمعتني به صلات قوية وأواصر متينة، وكانت بيننا لقاءات عديدة عرفت فيها مواقفه من القضايا المتنوعة التي عرض لها بالدراسة، وكان موقفه منها واضحاً صريحاً في كتابته وفي حديثه وفي مسلكه وتصرفاته.

لقد كان ـ رحمه الله ـ داعية من دعاة الإسلام المخلصين، وكان يتميز بتنبهه إلى كثير مما تبثه دعايات أعداء الإسلام، وتروج له، وتلبسه أثواباً خادعة تجوز على كثير من الناس فلا يلتفتون إلى مواطن الخطورة فيه.

وكان موقفه من اللغة العربية مرتبطاً أشد الارتباط بنزعته الإسلامية الإيمانية، فالعربية لغة القرآن الكريم، ولغة التراث الذي يحوي تفسير الكتاب، والسنة، ويتضمن الأحكام المستنبطة فيها، فالمحاولات التي يُقصد بها قطع الصلة بيننا وبين لغة التراث إنما تهدف لقطع ما بيننا وبين كتاب الله، ولذلك كان من الضروري في نظره ـ التصدي لهذه المحاولات: «إبراء للذمة، واغتناماً للأجر، وخضوعاً لسنة الله الذي يضرب الحق بالباطل،

والذي ألزم أهل الإيمان محاربة أهل الكفر والضلال، ومكافحتهم ليبلو بعض الناس ببعض»[1].

والواقع أن الفهم الصحيح للإسلام يتمثل في شموله لجميع نواحي الحياة الإنسانية العقدية والعملية، فهو ليس مقصوراً على مجموعة من الشعائر والطقوس والمناسك، وإنما يشمل النواحي النفسية والاجتماعية والسياسية والخلقية، ومن ثم فإن المحاولات التي يُراد بها تنظيم هذه النواحي الحيوية بما لا يتفق مع مبادىء الإسلام وأفكاره إنما هي محاولات هادمة ينبغي التصدي لها والوقوف في وجهها مهما أُلبست هذه المحاولات والأفكار الطارئة الدخيلة من الأثواب الخادعة، ومهما حاول مروّجوها والداعون إليها أن يحتجّوا لها بالحجج والبراهين.

من هذا المنطلق كانت مواقف أستاذنا ـ رحمه الله ـ، وكانت خصوماته في القضايا الكثيرة التي تناولها بالدراسة، وسنعرض هنا لبعض المواقف والخصومات المتصلة بالدين واللغة، وستكون عنايتنا في عرضها بالفكرة والموضوع أكثر من عنايتنا بالأشخاص.

إن هذه الخصومات جزء من المعركة بين القديم والجديد، أو المعركة بين «الذين يريدون أن يحملوا المسلمين والشرقيين على حياة الغرب وعاداته من المستعمرين ومن الذين يعينونهم على ذلك من المأجورين أو المفتونين أو السذج والمغفلين، وبين المحافظين الذين يدافعون عن دينهم وتراثهم، سواء منهم من يفعل ذلك عن تدبر ووعي، ومن يفعله عن تمسك بما ألف، وعكوف على ما ورث»[2].

لقد رُدَّ كل ما ظهر من الدعوات في عصرنا إلى واحد من أقسام ثلاثة،

---

(١) د. محمد محمد حسين: «حصوننا مهددة من داخلها» ص ٢٣٢، ٢٣٣.

(٢) د. محمد محمد حسين، «الاتجاهات الوطنية» ج ٢ ص ٢٨٩، «اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر» ص ١٢.

وهي ما يقصد به هدم الدين، وما يقصد به هدم الخلق، وما يقصد به هدم اللغة، وهذه الأقسام الثلاثة مترابطة متصلة الوشائج، لأن هدم اللغة العربية التي يتعبد بها المسلمون ليس إلا هدماً للإسلام، كما أن هدم الخلق ليس إلا هدماً لجانب هام من جوانب الدين.

إن الروابط الروحية والخلقية والفكرية هي العمد التي يقوم عليها صرح المجتمع ويتماسك بها بناؤه، لأنها هي وحدها التي تصحح دوافع الناس، وتسمو بأغراضهم وأهدافهم عن الإسفاف، وبها وحدها يقبلون على التضحية راغبين، ويتقبلون نتائجها كسباً كانت أو خسارة راضين مطمئنين[1]، وأي قصد إلى توهين هذه العمد التي يتماسك بها المجتمع أو يؤدي إلى زعزعته ونزع الثقة منه يُعدُّ هدماً بلا شك، وهذه العمد هي الدين واللغة والخلق.

والإيمان بالغيب والتسليم بحدود الله هو الأساس الأول للدين، لأن الدين إنما يوحد الجماعات عن طريق هذه المسلمات التي يتفقون عليها رغم اختلافهم في الأذواق، وتفاوتهم في الملكات وفي أنماط الفكر ومناهجه ونزعات النفوس وأهوائها، ولأن معرفة الإنسان محدودة بحدود كثيرة، فهي محدودة بحكم طاقة الحواس التي يستمد منها المعرفة، وهي محدودة بحكم الحيز الزماني الضئيل الذي يعيش فيه الإنسان ويدركه لا يعرف ما قبله ولا بعده، كما أنها محدودة بحكم الحيز المكاني التافه الذي يحيط به، والذي لا يعرف ما وراءه في آفاق الفضاء، بل في أعماق الأرض والبحار إلا حدساً ورجماً بالغيب، ومن ثم فإنه لا ينبغي الاغترار بالعقل البشري، بل ينبغي التسليم بعجزه وقصوره، وهو أمر قد أثبتته العلوم الحديثة، وعلم الفلك خاصة، وأصبح تمسح المشككين والملاحدة بالعلم ضرباً من الجهل والمكابرة، وليس في هذا دعوة إلى إلغاء الإنسان لعقله أو إهماله، ولكنه دعوة إلى استعمال

---

(١) «اتجاهات هدامة» ص ١٢.

العقل فيما هو صالح له وقادر عليه، وعدم استعماله أو الاعتماد عليه فيما ليس في طاقتـه أو إمكـاناته، لأن الذي يفعل ذلك يشبه من يريد أن يبصر في الظلام، وهو أمر تعجز عنه قدرة عين الإنسان، بينما يكون في قدرة أعين بعض الحيوانات[١].

ولما كان العقل البشري عاجزاً عن إدراك حقيقة الوجود كله، لأنه لا يعـرف منه إلا حاضره الذي يعيش فيه، ويجهل أوله وآخره، ويجهل العلة والغاية، كما أنه لا يعرف من هذا الحاضر إلا أقله، لما كان الأمر كذلك، فإنه لا ينبغي للإنسان أن يعارض مشيئة الله فيما أوحى إلى رسله، وفيما رسم من الحـدود التي تميز الخير من الشر، والنافع من الضار، والحلال من الحرام، بدعوى أنه لا يعرف حقيقتها، أو لا يدرك وجه المصلحة أو الضرر فيها، ولا سبيل إلى العلم حيث يعجز العقل عن الإدراك إلا عن طريق الوحي الذي اختص الله به رسله رحمة للبشر.

من أجل ذلك كان الطعن في الإيمان بالغيب هدماً للعقيدة الدينية في لبها وفي أساسها الأول الذي تقوم عليه، وهو السبب الذي حدا بالدكتور محمـد محمـد حسـين إلى أن يقف موقفـاً صريحاً من العلمانية Secularism، والتحررية Libralism، وأن يرى فيهما مناهضتين للدين، إذ يدعو المذهبان إلى الاعتماد على الواقع الذي تدركه الحواس والعقل، وإلى نبذ كل ما لا تؤيده التجربة من العقائد الغيبية التي يعدونها ضرباً من الأوهام، وكلا المذهبين أثر من آثار سيادة المنهج التجريبي.

لقد نبه في دراساته إلى كثير مما أُذيع على الناس أو أخرجته الصحف والمجلات باسم العلم والعلمانية، وباسم حرية الفكر والتحرر من عبودية التقليد، وبين مواضع الخطورة فيما كتبه بعض الكتاب الذين يجرُّون القراء

---

(١) انظر هامش «الاتجاهات الوطنية» ج ٢ ص ٢٩١.

من حيث لا يدرون إلى إنكار الوحي، وإلى اعتبار الأنبياء فلاسفة ومفكرين تخضع الديانات التي جاؤوا بها للنقد والتعديل والتنقيح والتهذيب(١)، كما لفت النظر إلى الأساليب التي اتبعتها بعض الصحف والمجلات في ذلك، حيث تقدم الآراء الغربية الشاذة التي تترك أثرها في عقول الأغرار دون أن تعرض لها بتصديق أو تكذيب، وهي آراء تشكك الناس في الإيمان بالغيب، وفي مقررات الدين، وثمة أسلوب آخر نبه إليه، وهو أن بعض الكتاب يقارنون بين الأديان السماوية وبين ما تتوارثه الشعوب من أساطير، تاركين للقارىء أن يستنتج من ذلك أن الأديان ليست إلا مجموعة من الأساطير التي لا تصلح إلا للتلهية، وإمتاع الخيال، وتزجية أوقات الفراغ، ومن هذا القبيل ما كتبه الدكتور طه حسين في مقدمة كتابه «على هامش السيرة» حين قرر أنه لا يروي ما يرويه إلا على أنه أساطير جميلة فيها غذاء للعواطف ومتعة للخيال.

ومن هذا المنطلق أيضاً كان هجومه على كتاب «في الشعر الجاهلي» للدكتور طه حسين الذي ظهر عام ١٩٢٦، لما فيه من جراءة على الدين، وإنكار لبعض ما جاء في القرآن الكريم، فصاحبه يدعو في بحث الأدب إلى «أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتنا، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به»، كما أنه يزعم أن في قصة إبراهيم وإسماعيل التي ذكرت في القرآن الكريم نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين العرب واليهود من جهة، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى، برغم أن قرابة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام للعرب ليست إلا أسطورة لقيت رواجاً عند القرشيين، وكذلك تأسيسهما للكعبة وهي شبيهة ـ في نظره ـ ببعض أساطير اليونان.

وقد قام الدكتور محمد محمد حسين بنقد المنهج الذي اتبعه الدكتور طه حسين في كتابه، وبين أنه يبدأ تفكيره في أغلب الأحيان بغرض هو محض

(١) «الاتجاهات الوطنية» ج ٢ ص ٢٩٣.

تخيل مبني على الحدس والظن، ولكنه لا يلبث أن ينسى أنه لم يُثبت هذا الغرض، فيضعه موضع القضية المسلم بها، ويمضي في الاستنتاج، وذكر أنه «يمضي في سوق فروض يبدأها بـ «أليس من الممكن أن» أو «لعل» أو «أكاد أعتقد أن. .»، ثم يخيل إليه أن تراكم هذه «اللعلات» والـ «أليس ممكنات» قد رفعت قيمة هذه الفروض وأثبتت صحتها»(١).

وقد كان كتاب «في الشعر الجاهلي» سبباً في معركة كبيرة بين أنصار القديم وأنصار الجديد، وظهرت كتب كثيرة في الرد عليها، من أهمها كتاب مصطفى صادق الرافعي «تحت راية القرآن» وقد عرض الدكتور محمد محمد حسين لهذه المعركة بما يبين موقفه الواضح منها.

وإذا كانت الدعوات السابقة تدعو إلى هدم أصل التدين ورفض الإيمان بالغيب، فإن هناك دعوات أخرى كانت تستهدف الإسلام وحده، منها ما كان يحاول أن يظهر الشريعة الإسلامية بمظهر الشريعة البدائية، ومنها ما يزعم أن الشريعة جاءت بأصول عامة وتركت لكل زمان ولكل بيئة أن تطبقها بما يناسبها، ومنها ما كان يتصيد مواطن الشبه والغموض في الشريعة وفي حياة الرسول ﷺ ليفتن بها الأغرار الذين يدق عليهم، فهم وجوه الخير والمصلحة فيها، ومنها الدعوات العالمية التي تلبس للناس ثياب الرحمة والإنسانية وحب السلام والوئام، ولها من وراء ذلك أهداف أخرى ترمي إلى هدم الأديان أو زعزعة الثقة فيها.

لقد نبه الدكتور محمد محمد حسين إلى خطورة هذه الدعوات، وإلى النتائج التي ترتبت على نشرها وترويجها بين الناس، فدعوى بدائية الشريعة الإسلامية هي دعوى المبشرين والمستشرقين من الغربيين ومن جرى مجراهم، وقد نتج عنها نتيجة خطيرة، وهي أن الشريعة الإسلامية تقبل التطور لتلائم

(١) «الاتجاهات الوطنية» ج ٢ ص ٣٠٠.

التقـاليد والعـادات في مختلف العصور والبيئات، ومن هذا المنطلق كانت خصومة الدكتور محمد حسين للشيخ محمد عبده ومدرسته وخلافه معهم، ذلـك أنهم دعوا إلى الملاءمة بين الإسلام وبين الحياة في القرن العشرين، والخطورة في دعوتهم تتمثل في تفتيت الوحدة الإسلامية، إذ يصبح الإسلام مختلفـاً في الجيل الـواحـد باختلاف الأقاليم، فيكون هناك إسلام مصري وإسلام عراقي وثالث حجازي وهكذا، بالإضافة إلى أن التطور لا يقف عند حد، ويذهب الناس فيه كل مذهب، ولهذا السبب كان تأييد الغرب ساسة وكتاباً مثل جب وكرومر لأصحاب هذه المدرسة، وعطفهم عليها، لأنها تحقق أغراضهم.

ويرى الـدكتـور محمد محمد حسين أن هذه الفكرة مهما أحسنّا الظن بالـذين دعوا إليها تضر بالمسلمين وتخدم مصالح الاستعمار، بالإضافة إلى فسادها وضلالها، لأن وظيفة الدين هي إصلاح المجتمع ورده إلى الطريق المستقيم كلما زاغ عن القصد، وانحرفت به الشهوات، فإذا زعم زاعم أنه يجب أن يتطور ليلائم كل عصر وكل بيئة فقد أفقده وظيفته، لأنه سيصبح تابعـاً للحياة يستقيم باستقـامتهـا، ويعوجُّ باعوجاجها، فينقاد لها بدل أن يقـودهـا، أما ضلال الفكرة فلأن اعتقادها والتسليم بها ينافي ما يجب أن يعتقده المسلم في الشريعة المنزلة من عند الله العليم الحكيم الخبير الذي لا يغيب عن علمه شيء من صلاحيتها لكل زمان ومكان.

وقد بين أن هذه الحركة الداعية إلى التأويل وتطوير الشريعة بما يناسب الـزمان والمكان، وبما يساير الحضارة الغربية كان لها مظاهر كثيرة، أبرزها الـدعـوة إلى ما يسمى بتحـرير المـرأة، والدعوة إلى تعديل قانون الأحوال الشخصية بتقييد تعدد الزوجات، وتقييد الطلاق، ومساواة المرأة بالرجل في الميراث، وتشدد الناس في الأخذ ببعض أحكام الإسلام، وتهاونهم في بعضها الآخر مسايرة للعصر، وكان أكثر مظاهرها تطرفاً ما جرى في تركيا على يد

الكماليين باسم تجديد الإسلام.

وهو يبين أن «خطر التطوير على الإسلام وعلى المجتمع الإسلامي يأتي من وجهين: فهو إفساد للإسلام يشوش قيمه ومفاهيمه الأصيلة بإدخال الزيف على الصحيح، ويثبت الغريب الدخيل ويؤكده، فبعد أن كان الناس يشاركون في تصاريف الحياة وهم يعرفون أن هذا الذي غُلِبوا على أمرهم فيه ليس من الإسلام، والأمل قائم في أن تجيء من بعد نهضة صحيحة تردُّ الأمور إلى نصابها عند الإمكان، يصبح الناس وهم يعتقدون أن ما يفعلونه هو الإسلام، فإذا جاءهم من بعد من يريد أن يردهم إلى الإسلام الصحيح أنكروا عليه ما يقول، واتهموه بالجمود والتمسك بظاهر النصوص دون روحها»(١).

أما الدعوات التي تقوم على تصيد مواطن الشبه في الإسلام وفي السيرة النبوية فقد ظهرت نتيجة لما كان يروجه المبشرون والمستشرقون، ولم يكن في مطاعنهم ـ في نظره ـ خطر كبير، لأن المسلمين يعلمون عداء أصحابها وسوء قصدهم، ولكن الخطورة كانت تتمثل فيما يروجونه باسم البحث العلمي، حيث يختلط الحق بالباطل، حتى يصعب على كثير من الناس التمييز بينهما.

أما الدعوات العالمية ذات الخطورة على الإسلام فقد تمثلت في الماسونية والشيوعية والروحية، وفي الدعوة إلى التوفيق بين الأديان، وبين الإسلام والمسيحية بصفة خاصة، والمقصود منها هو تشتيت الناس، وصرفهم عن عقائدهم وعن أمتهم التي يعرفون مكانهم منها ووظائفهم فيها إلى تيه مضلل من المبادىء التي لا تحدها حدود واضحة المعالم، وليس وراءها إلا الضياع المطلق، والمريب فيها أنها صادرة عن الغرب، وليس بينها دعوة واحدة صدرت عن الشرق، فالروحية ـ مثلاً ـ تصطنع اسم العلم، وتزعم أنها تجري التجارب على الاتصال بأرواح من ماتوا، ولكنها تتدرج في أباطيلها إلى

(١) «أزمة العصر» ص ١٠٦.

هدم العقائد الدينية، وهدم نبوة الأنبياء، وهي تبغي من ذلك إقامة مناهج جديدة وشعائر مستحدثة تخالف الأديان وشعائرها(١).

ويبين الدكتور محمد محمد حسين أن الدفاع عن الإسلام في مواجهة هذه الدعوات الهدامة قد اتخذ منهجين، يقوم أحدهما على الإعجاب بالفكر الغربي، ويعتمد عليه في تفنيد شبه المهاجمين والمشككين، ويقوم الآخر على عداوة الفكر الغربي بمختلف صوره وأساليبه، ويدعو إلى تخليص الفكر الإسلامي من آثاره، والاتجاه الأول متأثر بمدرسة الشيخ محمد عبده، وفي نظره أنه لا يسلم من كل ما وجه إليه من مآخذ، وفي مقدمتها ابتداع تفسير جديد للإسلام ولنصوصه يخضع للفكر الغربي، ويعين على ما يخطط له الاستعمار من أجل تقريب الهوة التي تفصل بين الشرق والغرب، أما الاتجاه الآخر فيبدو ـ في نظره ـ أقوم سبيلاً، ويمثله الشيخ مصطفى صبري الذي رأى أن مهمته الأولى هي مقاومة دعوات الإلحاد الهدامة، ورد الناس إلى التمسك بالشريعة، والإيمان بالكتاب كله دون تفريق بين دقيق وجليل، ورفض كل دعوة إلى التأويل وإلى تطوير الإسلام.

وقد أرخ للدعوات الهدامة التي اتجهت إلى اللغة العربية بما يبين موقفه الصريح منها مهما حاولت أن تلبس من أثواب الخداع أو تتستر وراء الرغبة في الإصلاح، فأرخ للدعوة إلى اللهجات العامية والتي بدأت عام ١٨٨١ في «المقتطف» حيث ظهر فيه اقتراح كتابه العلوم باللغة التي يتكلمها الناس، ثم ألف أحد القضاة الإنجليز ويدعى «ولمور» كتاباً عن عامية القاهرة، ووضع فيه قواعد لها، واقترح اتخاذها لغة للعلم والأدب، كما اقترح كتابتها بالحروف اللاتينية، ودعا إنجليزي آخر هو «وليم ولكوكس» ،بعد ذلك إلى هجر اللغة العربية، واستخدام «اللغة المصرية»، وقد أشاد به سلامة

(١) انظر في تفصيل ذلك كتاب «الروحية الحديثة حقيقتها وأهدافها» للدكتور محمد محمد حسين.

موسى، وقد شاع استخدام اللهجة العامية بعد ذلك في المسرحين الهزلي والجدي، وفي السينما، ثم بدأت تظهر في الأدب المكتوب، والأدهى من ذلك أن هذه الدعوة استطاعت أن تتسلل إلى مجمع اللغة العربية، حيث ظهرت سلسلة من المقالات عن «اللهجة العربية العامية» كتبها أحد أعضاء المجمع، وهو عيسى إسكندر المعلوف، وهو معروف بعدائه الصريح للعربية.

وقد بين أن النشاط الموجه إلى اللغة العربية وآدابها يهدف إلى تفريق المجتمعين عليها بمختلف الحيل والأساليب، ويمكن حصره في شعب ثلاث: تتناول أولاها اللغة، فيطالب بعضها بإصلاح قواعدها، ويطالب بعضها الآخر بالتحول عنها إلى اللهجات السوقية. أما الشعبة الثانية فتتصل بالكتابة حيث تجد الدعوة إلى تعديل أصولها، أو إلى التحول عنها جملة إلى الحروف اللاتينية، أو إلى حروف أخرى مبتكرة أو مقتبسة، وتتناول الشعبة الثالثة الأدب، فيدعو بعضها إلى العناية بما يتصل منها بالقوميات الإقليمية الخاصة، ويدعو بعضها إلى الأدب الشعبي، ويقصدون به كل ما هو متداول بغير العربية الفصحى، وبين أن هذه الدعوة بشعبها الثلاث ظهرت على أيدي رجال الاستعمار في مختلف أجزاء الوطن العربي، أو تحت رعايته وفي حمايته، وفي حضانة التبشير[1]، والهدف من ذلك كله هو محاربة الفصحى، والتخلص منها دفعة واحدة إن أمكن، وبالتدريج إن استعصى ذلك، وقد نبه إلى أن هذا النشاط الهدام الموجه إلى اللغة أخطر من سائر الدعوات الهدامة، لأنه يرمي إلى أن يصبح القرآن أثراً ميتاً كأساطير الأولين التي أصبحت حشو لفائف البردي، إذ تنقطع صلة المسلمين به لأنهم لا يفهمونه.

والحديث عن هذه الأفكار والمزاعم التي روجها أصحابها والرد عليها من

---

(١) تفصيل ذلك في كتاب «اتجاهات هدامة» للدكتور محمد محمد حسين ص ٤٤، ٤٥.

قبل أنصار الفصحى وتفنيدها حديث طويل نكتفي بالإحالة إليه[1]، وكذلك ما يتصل بدعوات التيسير المشبوهة في النحو العربي، وقد بسطت الحديث عنها في بحث سابق[2].

على أنه ينبه إلى أن الخطر الكبير ليس في الدعوة إلى العامية، ولا إلى الحروف اللاتينية، لأن مثل هذه الدعوات ظاهر الخطر، ولكن الخطر الحقيقي يتمثل في أنصاف الحلول التي يتولاها خبثاء الهدامين ممن لا يطلبون انقلاباً كاملاً، وإنما يقنعون بالتحول الهادىء الذي أشار إليه جب حين وصف تطور المجتمع الإسلامي المصري بأنه يسير سيراً هادئاً تدريجيًّا لا يكاد يسترعي الانتباه.

كانت هذه المواقف الواضحة من الدين واللغة موجهة لكتابات الدكتور محمد محمد حسين، وكانت سبباً في كثير من خصوماته ومواقفه من كثير من الكتاب والباحثين الذين لا يفتأ يهاجمهم بسبب مواقفهم التي يراها منحرفة عن الجادة.

ونحن نقرر أن هذه الخصومات لم يكن لها دوافع شخصية أو مصالح ذاتية، وإنما هي خصومات موضوعية فكرية، أو بعبارة أخرى هي خصومات تتصل بالعقيدة والفكر، وكان لها مظاهر كثيرة تمثلت في هجومه على الفكر الغربي والمفتونين به من الشرقيين، حين يحاولون أن يغيروا به من مفاهيمنا الأصلية في الدين واللغة، أو يزعزعوا من ثقتنا فيهما.

---

(١) انظر «اتجاهات هدامة في الفكر العربي المعاصر» ص ٤٨ وما بعدها، «الاتجاهات الوطنية» ج ٢ ص ٣٥٩ ـ ٣٨٤.

(٢) تناولت دعوات التيسير في محاضرة لي عن تيسير اللغة العربية.من سلسلة محاضرات جامعة الإسكندرية عام ١٩٧٢.

منهج الدكتور محمد محمد حسين
في تحقيق ديوان الأعشى

(ميمون بن قيس)

للكتب أقدار كأقدار البشر، يحظى بعض منها بالذيوع وخلود الذكر وعظم التأثير، ويهوي بعض آخر في مهاوي النسيان، وتنبهم معالمه مع الأيام، فكأنه لم يكتب ولم يؤلف، وما أكثر العوامل التي تدفع للتألق والشهرة، والظروف التي تطمس وتودي إلى الخمول، وإنما نتكلم عن الأعمال الجديرة حقًّا بالتقدير، لما بذل فيها من نَصَب، وما تمثل فيها من عبقرية وعمق وقدرة على سبر أغوار الأمور.

وكثيراً ما يقترن اسم الباحث بأثر من آثاره، يصبح علماً عليه، فلا يكاد يذكر اسمه إلا ويذكر هذا الأثر معه، ولا يكاد يشار لعنوان هذا الكتاب إلا وأثار في نفوس السامعين اسم صاحبه، ونقصر التنويه على مجال تحقيق التراث، فكتاب ابن سلام في «طبقات فحول الشعراء» يدفع عفويًّا إلى تذكر اسم الأستاذ محمود محمد شاكر، و «بخلاء» الجاحظ يقود تلقائياً إلى ترديد اسم أستاذنا د. محمد طه الحاجري، و«رسالة الغفران» تفضي إلى السيدة عائشة عبد الرحمن، و«البيان والتبيين» يقترن باسم الأستاذ عبد السلام هارون، و«ديوان» الأصمعي يجعلنا نلهج بذكر أستاذنا المرحوم الدكتور محمد محمد حسين.

والكلمة التي نقدمها اليوم تحاول أن تفصح عن صنيع صاحبه في

تحقيقه، وتقارن بين منهجه ومنهج من حققوا «ديوان» الأصمعي بخاصة، وبين مناهج التحقيق بعامة، ونحن نعلم أن الحديث ذو شجون، وأنه يحتاج من العدة أضعاف أضعاف ما يقوى عليه باعنا الكليل، وإنما هي مجرد محاولة نرجو منها أن تقود إلى بحوث أكثر استيعاباً ودقة.

وقد صدرت من «ديوان» الأعشى - بتحقيق محمد محمد حسين - طبعتان: الأولى سنة ١٩٥٠ عن مكتبة الآداب بالقاهرة والثانية سنة ١٩٦٨م في بيروت (؟)[١]، وفي خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمان لم يكَف الرجل عن إعمال قلمه في الطبعة الأولى، يضيف إليها ما ينبغي أن يضاف، ويعدل ما يحتاج إلى تعديل، فضلاً عن أنه اهتدى لنسخة أخرى لم تكن مما استعين به من قبل، وهذا وأضرابه مما سنعود إليه في بحثنا هذا.

وما نريد هنا أن نتحدث عن الأعشى الكبير - ميمون بن قيس -، فإن هذا موضوع متشعب الجوانب مترامي الأبعاد، وبحسبنا أن نقول إنه أحد شعراء الطبقة الأولى المعدودين، وأنه من أصحاب المعلقات، وله شعر وفير مع جودة معنى ومبنى، وقد لقب بـ «صناجة العرب» لكثرة ما تُغُني بشعره، وهو ممن أدرك الإسلام ولم يسلم، وتوفي سنة ٧ للهجرة - ٦٢٩م، ومن البديهي أن هناك عنه حشداً من الإشارات في العديد من المصادر والمراجع[٢]، التي تكاد تتفق فيما بينها على اعتباره ظاهرة فذة من أبرز ظواهر

(١) صدرت هذه الطبعة عن المكتب الشرقي للنشر والتوزيع ببيروت، وفي الصفحة الأخيرة منها أنها طبعت بمطابع مؤسسة الأهرام.

(٢) انظر - على سبيل المثال - «الشعر والشعراء» ٧٩، «صحيح الأخبار» ١: ١٢، ٤٢، «خزانة الأدب» للبغدادي ١: ٨٤ - ٨٦، «الأغاني» (ط. دار الكتب) ٩: ١٠٨، «معاهد التنصيص» ١: ١٩٦. «طبقات فحول الشعراء» ص ٥٤.
وراجع: زيدان «تاريخ آداب» ١: ١٠٩، الزركلي «الأعلام» ٨: ٣٠١، داغر «مصادر الدراسة الأدبية» ١: ٣٦، بروكلمان «تاريخ الأدب العربي» ١: ١٤٧، شوقي ضيف «الأدب الجاهلي» ص ٣٤٠، ولفؤاد إفرام البستاني كتيب عنه (سلسلة =

الشعر الجاهلي، وفي هذا يقول بروكلمان:

«وما يتسم به شعر الأعشى من ترنيم الألفاظ ورنينها، وخفة عروضه ومرونته، يدل على أنه كان مبرزاً في الصناعة والفن الشعري، ومن ثم يراه بشار بن برد أكبر شعراء الجاهلية، ولا يغض من ذوقه الشعري إلا ولوعه بالكلمات الأجنبية، وخصوصاً الفارسية، وربما كان غموضها هو الذي حبب إليه المباهاة ببريقها أحياناً»(1).

هذا مجرد حكم من الأحكام، لا ينفسح المجال لأكثر منه، وما يعنينا أن نحدد مكانه في ميزان النقد أو في تاريخ الأدب، فقضيتنا ترتكز أساساً على جزئية صغيرة هي منهج تحقيق د. محمد محمد حسين لديوان الأعشى، وقد أشرنا من قبل إلى وجود أكثر من طبعة للديوان، وربما جاز لنا هنا أن نقول: إن للتحقيق والنشر أكثر من منحى، فلا توجد قواعد نهائية حول أصول التحقيق، لكن هناك ـ في الوقت ذاته ـ قواعد تتعلق بتحقيق النصوص، أوضحها أكثر من دارس لها، نذكر منهم ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ كتاب برجستراشر، وهو في أصله محاضرات أملاها على طلاب كلية الآداب بالقاهرة في الثلاثينات، وكتاب جيد مركز للأستاذ عبد السلام هارون، وآخر للدكتور صلاح الدين المنجد، ورابع للدكتور حسين محفوظ (العراقي)، لكن الدربة بهذه الأصول لا تأتي عن طريق استيعاب القواعد بقدر ما تأتي عن سبيل الدرس والتحليل لجهود المحققين المتمرسين، وبقدر ما تنبثق في أثناء معاناة التحقيق ذاته، والغرق في خضم بحره اللُّجي من تفتيش عن الأصول في

= الروائع، العدد ٣١) ونوقشت في كلية الآداب (الإسكندرية) رسالة (ماجستير) عنه لعباس بيومي عجلان «عناصر الإبداع الفني في شعر الأعشى» ـ ١٩٧٩، ورسالة دكتوراه لزينب عبد العزيز العمري: «السمات الحضارية في شعر الأعشى: دراسة لغوية وحضارية» ـ ١٩٨٢.

(١) «تاريخ الأدب» ١/ ١٤٩.

مظانها المختلفة، وإدامة النظر فيها لتصنيفها وتحليلها وفقاً لطبيعة العمل، وللإمكانات المتاحة والاعتبارات التي تحيط بالنص، وهذا وأضرابه مما يطلق عليه في أيامنا هذه اسم «تحقيق»، وكثيراً ما تساق هذه اللفظة ـ واأسفاه ـ من غير تحقيق، وقد كان القدامى يستعملون تعبيراً بارعاً هو «الصنعة»، وفيه ما يعبر في جلاء عن ضرورة الالتزام بقواعد علمية مقننة، وهذا التعبير «صنعة» يتوافق وما نراه في المصطلح الأوربي Edition Scientifque ـ طبعة علمية ـ أو Edition Critique ـ طبعة نقدية[1] ـ، فالصنعة والعلم والنقد والتحقيق مصطلحات تتلاقى في جوهرها كما تتلاقى دلالات الجودة والدقة والصبر والأناة...

وقد عرفنا من سبل نشر التراث ـ وعرف العالم كله أشباهاً له ـ ما يطبع من غير ما فحص ولا تدقيق، وإنما الأمر نسخ مخطوطة قد تكون مغلوطة النسبة أو مبتورة الأوصال أو غاصة بالإضافات والتعديلات وما شابه ذلك، وهناك طبعات يجوز أن توصف بأنها نصف علمية، وهي التي ينهض بعبء نشرها أناس جادون، يقيمون النص على قدر الاستطاعة، ويعلقون على ما فيه من قضايا، ويشرحون ما قد يحتاج فيه لشرح، أما الجهد العلمي الأصيل فإنه يتجه أول ما يتجه إلى البحث عن الأصول وتصنيفها وتحليلها، ثم تقديم النص على أقرب صورة وضعها صاحبها، مع تتبع أوجه الخلافات بين النسخ، ووضع الإحالات الملائمة والفهارس الموضحة، يضاف إلى هذا أن يوضع للنص تقديم مناسب يختلف بحسب طبيعة العمل: كما ذكرنا، ويكفينا من التصدير ـ على كل حال ـ أن يضيء جوانب النص، بحيث نتعرف على صاحبه، وعلى طبيعة موضوعه، يضاف إلى هذا أن يقدم تحليلاً

(١) انظر في ذلك مجموعة القواعد التي استقاها الأستاذ بلاشير وسوفاجية من مناهج التحقيق الأوربية، وذلك لتطبيقها على الكتب العربية:

R. Blachère, et J. Sauvaget: Reġles Pour Editions et Jraductions de Textes Arabes, Paris, 1945.

للطبعات السابقة ـ إن كان الأثر قد طبع قبلاً ـ وللمخطوطات التي ارتكزت عليها الطبعة الحديثة.

ومن حسن حظ الأعشى أن عالماً من جهابذة مدرسة الاستشراق الألمانية قد عكف على ديوانـه، وأفنى في سبيل تحقيقـه جهـده وعمـره، ونعني به المستشرق الألمـاني رودلف جاير الذي طبع الديوان في فيينا سنة ١٩٢٨(١) تحت عنوان «كتاب الصبح المنير في شعر أبي بصير»، وألحق بالديوان ما سلم من أشعار الشعراء الملقبين بالأعشى غير شاعرنا (من ص ٢٦٣ ـ ٣٤٥)، وهم أعشى أسد (خيثمة بن معروف)، وأعشى باهلة (عامر بن الحارث)، وأعشى بُجرة (قيس بن بجرة بن قيس الأسدي)، وأعشى بَيْبَة (أخو بني سعد ابن مالك)، وأعشى تغلب (عمرو بن الأهيم)، وأعشى تميم (ابن النباش ابن زُرارة)، وأعشى ثعلبة، وأعشى جَرْم، وأعشى جِلّان، وأعشى أبي ربيعة (عبـد الله بن خارجة)، وأعشى سُليم، وأعشى طرود (إياس بن عامر)، وأعشى عجـل (مسعود بن حريث)، وأعشى عُكْل (كَهْمَس بن قَعْنب)، وأعشى عوف بن همام (يزيد بن خالد)، وأعشى مازن (عبد الله بن الأعور الحرمازي)، والأعشى المغربي، وأعشى نجوان (ربيعة بن يحيى التغلبي)، وأعشى نعـامـة (حيان بن جيّاش)، وأعشى نهشـل (الأسـود بن يعفُـر التميمي)، وأعشى هِزّان (عبد الله بن ضباب)، وأعشى همْدان (عبد الرحمن ابن عبد الله)، كذلك أضاف إلى عمله هذا ما أُنشد للمسيَّب بن عَلَس (وهو خال الأعشى، والأعشى راويته) وجاء العمل كله في ٧٤٠ صفحة، ووضع له من التعليقات ما يزيد عن نصف المطبوعة (٣٨٠ صفحة)، واستعان في تقويم النص بأكثر من ٥٦٠ مصدراً ومرجعاً.

(١) يحمل الغلاف الذي بالعربية أن الكتاب «طبع في مطبعة أدلف هلز هوسن، بيانه ١٩٢٧، أما الغلاف الآخر:

Rudolf Geyer: Gedichte Von Ábü Basir Maimün Ibn Qais Al–ÁSA. ...London 1928.

ذلك أنه صدر عن مجموعة جب التذكارية.

وقد وضع جاير لطبعته مقدمة ذكر فيها أن فكرة تحقيق «ديوان» الأعشى تمكنت من نفسه منذ أكثر من أربعين عاماً، وقد بدأ المشروع بالتنقيب عن مخطوطات الديوان، وتيسر له ما كان منها في القاهرة وليدن، لكنه علم أن عالما اسمه ثوربيك Thorbecke يتأهب لنشر نفس العمل، فما كان منه إلا أن وضع المواد التي توفرت لديه تحت إمرة ذلك العالم الذي حالت وفاته عقب ذلك دون نشره للديوان، وكانت النتيجة أن آل إليه من جديد أمر التحقيق، متكئاً على مخطوطة الديوان المحفوظة في الإسكوريال، وهي مخطوطة قديمة لحقتها بعض آثار احتراق وبلل، فضلاً عن أن النار التهمت أوراقها الأخيرة، فاختفت بذلك المعلومات التي تشير إلى تاريخ نسخها (الذي رجح خبير في الخط العربي يدعى جروهمان Grohmann أنه يعود إلى القرن الثالث الهجري)، وهـذه المخطوطة تحتوي على شعر الأعشى من صنعة أبي العباس أحمد بن يحيى المشهور بثعلب، أو هكذا يعتقد على كل حال.

وقد قدم المحقق (جاير) عن هذه المخطوطة تعليقات وافية ربما تجاوزت نطاق ما هو معهود في هذا الشأن، إلا أن هذه الإفاضة تميزت بالحس النقدي العميق، وانتهى فيهـا جاير إلى التـأكيد على أن النص من صنعـة ثعلب بالفعل، إلا أن الشروح تتكىء على آراء البصريين، وعلى ابن دُرَيْد خاصة، وهذا ما لا يمكن أن يكون قد تم على يد ثعلب (الكوفي)، ومن ثم رجح أن يكون التوفيق بين شرح ثعلب وشرح بصري آخر (مجهول المؤلف) قد تم على يد أحد اللغويين الأندلسيين، لأن «التأليف بين نص ديوان ثعلب وبين التفسير المبني على رواية البصريين يلائم الاتجاه الإسباني»(١).

وقد دعم جاير قراءة هذا النص بمقابلة على مخطوطات الديوان المحفوظة بدار الكتب بالقاهرة، ومخطوطة في جامعة ليدن، وأخرى في المكتبة الوطنية بباريس، وهـذه المخطوطات الثلاث تتلاقى في سمات مشتركة مما يجعلها

---

(١) من مقدمة جاير (طبعة د. محمد محمد حسين ص ١٥).

تنتمي إلى أصل واحد، رجح المحقق أنه ديوان الأعشى بصنعة الأصمعي، وبـذا يكـون هناك أصلان رئيسان[1]: أولهما الديوان برواية ثعلب، ونسخ أخـرى تشتمل على رواية الأصمعي، وفي هذا الأصل الأخير نصوص لا توجد في المخطوطة الأم (أو الأصل الإسكوريالي).

يضـاف إلى هذا نصوص أخرى كثيرة لا توجد في هذين الأصلين مما وجده جاير مبثوثاً في ثنايا كتب الأدب، وقد أشار إليها بقوله:

«ولقـد عثـرت أثنـاء تنقيبي في المخطوطات والمطبوعات المختلفة على أشعار كثيرة للأعشى لم يذكرها ثعلب أو الديوان الصغير لأسباب مختلفة، فجمعت هذه القصائد في ملحق خاص كما جرت عليه العادة في مثل هذه الأحوال... على أن كثيراً من الأشعار التي تنسب للأعشى ليست لميمون، بل هي لشعراء آخرين يشتركون معه في هذا اللقب، ولكنهم ينتسبون إلى قبائل أخرى، ولذلك قسمت المقتطفات بين ما يرجح أنه للأعشى ميمون، وما يظن أنه لغيره، وجعلت هذا الملحق بأقسامه المختلفة ذيلاً للديوان».

ولا نريد أن نسترسل أكثر من ذلك في الحديث عن صنيع جاير، الذي يعد في الحقيقة نموذجاً جيداً للجهد العلمي الدؤوب، وفي ظننا أن عمـل د. محمد محمد حسين في «ديوان» الأعشى لا يمكن أن يفهم إلا في ظل تفهم أبعاد العمل الذي قام به جاير، وقد عبر د. محمد محمد حسين في مقدمة طبعته عن بالغ تقديره لجاير، وفي هذا يقول:

«الواقع أن مجهود الناشر في الديوان يعتبر مثالاً للدقة والأمانة العلمية

---

(١) ذكر ابن النديم «الفهرست» ص ٢٢٤ أن ديوان الأعشى الكبير رواه كل من أبو عمرو الشيباني والأصمعي والطوسي وثعلب وابن السِّكِّيت، وهناك روايات أخرى له ضاعت أصولها، وراجع د. شوقي ضيف «الأدب الجاهلي» ص ٣٤٠ (الطبعة الخامسة).

وللجلد على العمل الطويل الذي اتصل في خدمة هذا الكتاب أربعين عاماً، وقد اعتمدت على هذا المجهود القيم في طبعتي هذه، فبدأت عملي من حيث انتهى جاير، ولـذلـك كان من حق هذا المستشرق عليّ أن أعتبر عملي في «الديوان» إتماماً لمجهوده المضني، وثمرة لعمله المتصل الدؤوب»(١).

هكذا كتب د. محمد محمد حسين في أمانة وروح علمية منوهاً ومقدراً لصنيع عالم غربي ألماني، وهكذا رأينا العلماء النابهين لا يضِنُّون بالثناء والاعتراف بالفضل في مواقف يسهل فيها إغماط الحق، وقد رأينا الأستاذ محمود محمد شاكر يزجي المديح لـ «هل J. Hell» الذي سبقه إلى تحقيق طبقات ابن سلام، ورأينا الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي يسوق التقدير لفلوجل الذي وضع أول معجم مفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وجعل له عنوان: «نجوم الفرقان في أطراف القرآن»(٢).

وقد أحسن د. محمد محمد حسين صنعاً حين علل كثرة الأخطاء في القسم الأخير من الديوان (في طبعة جاير) بسبب سوء خط المخطوطة الأم (مخطوطة الإسكوريال)، وما لحق بها من عطب بعامل الاحتراق والبلل، كذلك أشار إلى أن المستشرق جاير أتم هذا الجزء وهو يعاني من الشلل الذي حل به وهو يحقق الديوان، يضاف إلى هذا أن الشرح قل في آخر الأصل (مخطوطة الإسكوريال) حتى أوشك أن يتلاشى تماماً بالنسبة للقصائد الأخيرة.

---

(١) مقدمة، ص ٤.

(٢) انظر مقدمة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي لـ «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم» صفحة هـ وفيها يقول: «وإذ كان خير ما ألف وأكثره استيعاباً في هذا الفن، دون منازع ولا معارض، هو كتاب «نجوم الفرقان في أطراف القرآن» لمؤلفه المستشرق فلوجل الألماني، الذي طبع لأول مرة سنة ١٨٤٢م، فقد اعتضدت به وجعلته أساساً لمعجمي».

وقد تعفف د. محمد محمد حسين عن أن يشير ـ مجرد إشارة ـ إلى عجمة المستشرق الألماني التي يمكن أن تكون حجاباً بينه وبين الوصول إلى أعماق نص شعري بالغ العسر، ذلك أنه آثر أن يُشيد بجسامة الجهد وقسوة الدأب، وأن يسجل المآخذ بأقصى درجة من الدقة والتسامح.

ولعل مما دفع د. محمد محمد حسين إلى هذا الصنيع ـ علاوة على تعففه وحسن تقديره ـ أنه لم يجد تحت يديه، وهو يقيم النص، المخطوطات التي رجع إليها جاير، أو بالأحرى لقد اعتبر قراءة جاير صحيحة إلا حين تكون المخطوطات الأخرى أقرب للصواب، خاصة وأن جاير أثبت اختلافات النسخ على نحو علمي بالغ الدقة، وقد ندت منه مواضع تتسم بالتصحيف البين مثل البيت الحادي عشر من القصيدة (٣١):

تَشْكـي إليَّ فلم أُشكِـها
مناسـمَ تُرْقَى وخفًّا رهيصا

وصوابها: (مناسمَ تَدْمى)

ومثل البيت التاسع من القصيدة السادسة والخمسين:

فغبوُا نحونَا لجُبا بهذا السهلَ والأكما

وصوّبها د. محمد محمد حسين بـ (يهدُّ السهل والأكما)

أما وقد وضح التلاحم بين العملين، عمل جاير والدكتور محمد محمد حسين، وظهر أن الطبعة المصرية ترتكز أساساً على مخطوطات وقراءات الطبعة الألمانية، فهل وقف دور المحقق المصري عند هذا الحد؟

في واقع الأمر إن د. محمد محمد حسين كان متواضعاً إلى أبعد مدى في تبيان الجهد الذي قام به، فإن معالجته للتصحيفات والتحريفات التي وقعت في الطبعة الألمانية كان من الدقة بمكان، وقد اكتفى في المقدمة بذكر أمثلة مما قام به، ولو شاء لأفرد العديد من الصفحات، وانظر على سبيل المثال نصًّا

يجيء في طبعة جاير (ص ٢٣٠، قصيدة ٨٠) أوله:

نامَ الخَليُّ وبتُّ الليلَ مرتفِقا
أرعى النُّجومَ عميداً مثبِتاً أرِقا

أسهو لهمّي ورائي فهي تسهرني
بانت بقلبي وأمسى عندَها علقا

وقد تأمل د. محمد محمد حسين في هذا النص، متفحصاً القراءات المختلفة حتى أقامه (ص ٤٠١ من الطبعة الثانية) على النحو التالي:

أسهُو لهمّي ودائي فهي تسهرُني
بانت بقلبي وأمسى عندَها غَلقا

والنص في الطبعة الألمانية غير مشروح على الإطلاق، أما في طبعة د. محمد محمد حسين فإننا نجد شرحاً للبيتين يفضي إلى:

(الخلي: الذي خلا قلبه من الهموم. ارتفق: اتّكأ على مرفقه. العميد: الذي أضناه الحب. أثبتته الجراح وأثبته السقم: لم يقدر على الحراك. سها إليه يسهو: نظر ساكن الطرف، والسهو السكون. بانت: بعدت. غلق الرهن في يد المرتهن: استحقه، وذلك إذا لم يقدر الراهن على افتكاكه في الوقت المشروط).

ونمضي مع بقية أبيات نفس القصيدة، فنجد فيها، في طبعة جاير:

١٣ ليسَتْ لهُ غفلةٌ عنها يطيقُ بها
يخشى عليها سوى السارينَ والسرقا

١٤ حرصاً عليها لو أنَّ النفسَ طاوَعَها
منه الضميرُ ليالي الغيم أو غرقا

١٥ في حوم لجَّةِ آذيٍّ له حدبٌ
من رامها فارقَتْهُ النفسُ فاعتَلقَا

والأبيات - على هذه الصورة - فيها خلل بين، فالحديث هنا يمتد بنا إلى ذلك الغوّاص الذي يغامر بحياته في سبيل اللؤلؤة الثمينة الكامنة في أعماق اليم، وهو يحوّم حولها متكالباً عليها خشية أن تصل إليها يد غير يده، ومن ثم لا يكون لقوله:

ليست له غفلة عنها، يطيق بها

معنى، وإنما اللفظة المفصحة عن الموقف هي، «يُطيفُ بها» وبذا تكتمل الصورة، وهذا ما نراه في طبعة د. محمد محمد حسين، كذلك لا يكاد المرء يفهم شيئاً من البيت الثاني (الرابع عشر) وإنما هو:

حرصاً عليها لو أنَّ النفسَ طاوَعَها
منهُ الضميرُ لبالي اليمَّ أو غرقا

وعلق د. محمد محمد حسين بالهامش:

«هي في الديوان: ليالي الغيم، ولا معنى لها، فهي محرفة بغير شك، ولكني لم أعثر على رواية أخرى، ولم أطمئن إلى تقويمها، فأثبت هنا أقرب الألفاظ إلى اللفظ المحرف، وقلت لعلها: لبالي اليمَّ أو غرقا، بالاه: فاخره وناقضه، وقد يكون المقصود بها هنا: تحداه» أي تحدى البحر.

وهذا الترجيح ثمرة إمعان فكر، ودقة تحليل، وأما البيت الثالث فإن جاير ضبط آخر كلمة فيه بالفتح، فأصبحت «فاعتلَقا» ولا معنى لها، وإنما هي بضم التاء وكسر اللام «فاعتُلِقا»، بمعنى علقته المنية، وبذا يستقيم المعنى، وهو ما نجده في طبعة د. محمد محمد حسين.

على أن الرجل لم يكتف بالشروح المستفيضة التي أثبتها بالهامش، وإنما اصطنع منهجاً مبتكراً لا أعرف من أين استقاه، وهو إثبات النص والشروح في الصفحة اليسرى، ووضع تحليل نثري للأبيات في الصفحة اليمنى المقابلة، وقد ذكر بصدد هذا الصنيع أنه سعى بذلك إلى:

«تقريب الشعر إلى القارىء بتقديم نثر كامل للقصائد يقابل النص

الشعري، ويربطه ببيئته وبالقيم الأدبية والاجتماعية التي يصورها. فقد بدا لي أن الصعوبة في ممارسة النصوص القديمة لا تقف عند غرابة الألفاظ والتراكيب، ولكن جزءً كبيراً منها يرجع إلى طريقة تصور هؤلاء الشعراء القدماء للأشياء، فمن الواضح أنها تختلف عن طريق تصورنا لها لاختلاف البيئة زماناً ومكاناً، ولتغير القيم الأخلاقية والاجتماعية تبعاً لذلك، ولهذا كان شرح المفردات والأساليب وحده لا يكفي لفهم الشعر وتذوقه. هذا إلى أن بعض الدارسين قد لا يعنيهم الشعر نفسه من ناحيته البلاغية والفنية، إذا كان قصدهم إلى الدراسات التاريخية أو الاجتماعية، وأمثال هؤلاء يستطيعون الاستغناء عن النص الشعري بالترجمة النثرية».

وقد سعى د. محمد محمد حسين في صنيعه هذا إلى الحفاظ ـ على قدر الاستطاعة ـ على الجو العام للنص، وماله من تأثير، وجرّب أكثر من سبيل، ففي القصيدة الأولى من الديوان (قصيدة:

ما بكاءُ الكبيرِ بالأطلالِ وسُؤالي فهلْ تردُّ سؤالي)

جرّب أن يقدم بإزاء كل بيت عبارة نثرية تؤدي معناه، وترتكز على نفس قافية اللامية، وهكذا وجدنا:

«فيمَ وقوفُ الرجلِ الكبيرِ بالأطلال.
وهُو يعلم أن الدِّمنةَ القفِرةَ التي تعبثُ بها الرياح لن تردَّ السؤال»(١).

لكنه وجد أن التقيد بالقافية يعوق حركة النثر، فعدل عن هذا الصنيع، اعتباراً من القصيدة الثانية في الديوان:

«لعمركَ ما طولُ هذا الزَّمَنْ على المرءِ إلّا عناءٌ مُعَنّ»

ففي مقابله نرى:

«لعمرك ما يطول عمر الإنسان في هذا الزمن إلا للعناء والشقاء»(٢) أي:

---

(١) «الديوان» ص ٣٨.

(٢) شرحه ص ٥٠.

لا نرى تقيداً بالقافية النونية.

وكأنما شعر بأن في رصد المعاني بيتاً بعد بيت ما يوهن من الترابط، ومن ثم تلاحقت نصوص كثيرة بعد ذلك جاء فيها التحليل النثري راصداً حركة المعنى بدون التقيد بشرح الأبيات بيتاً بعد آخر(١).

وصنيع د. محمد محمد حسين يذكر - من بعض الوجوه - بأساليب «حل الشعر»، على نحو ما أوضح ضياء الدين بن الأثير في «الوشي المرقوم في حل المنظوم» إلا أن حل الشعر كانوا يشترطون فيه أن تشي العبارة النثرية لا بمعنى البيت، بل بشيء من ألفاظه، حتى تنجلي قرينة «الحل»، أما محقق ديوان الأعشى فإنه سعى إلى استلهام المعنى الشعري، مقدماً - في عبارة نثرية - صيغة تعبيرية أخرى تنبثق من نفس رؤية الشاعر، وكأنه يريد أن ينقل في الصفحة المقابلة للقصيدة الخاطرة - الفكرة - التي كانت تحوم في نفس قائلها، قبل أن تعانق الوزن، وتتألق في شكلها الفني النهائي.

وفي كثير من التعليقات عناصر إفادة، وربما لا يوافقه عليها - مع ذلك - بعض الدارسين على اعتبار أن وظيفة المحقق أن يقيم النص في صورة سوية تأتي أقرب ما تكون للصورة التي جاءت عليها في نسخة المؤلف، وأن يشرح هذا النص بحيث يزيل ما قد يعتوره من عُسرٍ أو غموض، والحق أن هذه التعليقات أو الشروح الإضافية قد ضاعفت من حجم ديوان الأعشى، الذي كان من الممكن أن يأتي في نصف حجمه الحالي تقريباً لو أننا جردناه منها.

ونمضي مع منهج التحقيق الذي اتُّبع ها هنا، فنراه يسعى مع القصائد إلى الإشارة لكل بحر، وإلى التعريف بالأعلام والأحداث التي يعرض لها النص، ونجد المحقق يسعى جاهداً للارتقاء بالديوان إلى أكمل مستوى يمكن أن يصل إليه، ومن ثم يواصل - بعد صدور الطبعة الأولى - التنقيب

(١) انظر ص ٦٢ وما بعدها.

عن مخطوطـات جديدة يعضد بها عمله، إلى أن يقوده البحث للعثور على مخطوطة، لم تكن مما رجع إليه جاير في طبعته التي تحدثنا عنها من قبل، ولما كانت هذه المخطوطة المكتشفة ليست شديدة القيمة، فإن المحقق لا يلجأ إليها إلا في إكمال الفجوات التي وردت في الطبعة الأوربية كلما تيسر ذلك[1].

وقـد ضمَّنَ د. محمـد محمـد حسـين طبعتـه هذه مقـدمة موجزة عن الأعـشـى[2] (من ص ١٨ إلى ص ٣٦)، وفي هذا القــدر المحــدود من الصفحـات استـطاع أن يقـدم أبـرز ملامح حياة الشاعر وأهم خصائص شعره، كما قدم شكلاً بيانيًا موجزاً لما تفرع من قبائل تنتمي إلى بكر - ومنها قبيلة - الأعشى - وبـذا تكـون صورة تقديم الديوان قد اكتملت، فهناك العرض للطبعات وللمخطوطات وللصنيع الذي سيسير عليه المحقق، وهناك التعريف بالشاعر (وإن كان العرف في التحقيق قد جرى على البدء بالتعريف بصاحب النص، ثم الانتقال بعد ذلك إلى طائفة من القضايا الأخرى)، ومنها وصف المخطوطات أو الطبعات السابقة وتناول المنهج الذي سيسير عليه المحقق.

وإذا كانت مقدمة د. محمد محمد حسين للديوان قد استوعبت كل ما يمكن أن ينشده الدارس أو القارىء، فإن فهارسه التي ذيَّل بها الطبعة جاءت بالغـة الجـودة، مكتملة الأبعـاد، وقد صنع للديوان تسعة فهارس تشمل «القوافي»، و «الفنون الشعرية والمواضيع»، و«الأعلام»، و«القبائل والأمم»، و«الأمـاكن»، و«الأيام»، و«المعاني والصور»، و«اللغة»، ثم فهرس ختامي يتضمن «مواضع الخلاف بين هذه الطبعة وبين طبعة أوربا».

---

(١) انظر مقدمة «الديوان» ص ٣.

(٢) عثرنا في كتاب «الأدب العربي في آثار الدارسين» ص ٣١ على إشارة تقول إن محمد محمد حسين نال درجة الماجستير من جامعة القاهرة سنة ١٩٤٠ على رسالة بعنوان «الأعشى صنّاجة العرب» وفي ظننا أن هذه الرسالة لم تطبع.

وفي ضوء هذه الفهـارس المتنوعة، يستطيع القارىء ـ الذي يريد أن يعرف ما للأعشى من شعر في المديح ـ أن يرجع لفهرس الفنون الشعرية والمواضيع، عندئذ يجد ثبتاً وافياً، بل إننا ـ عن طريق هذا الفهرس ـ نستطيع أن نعرف في لمح البصر الفنون التي عالجها الأعشى، ومبلغ انتشارها في ديوانه(١).

وقد فصل فهرس الأعلام عن فهرس القبائل والأمم، وبعض المحققين يجمع كل هؤلاء في فهرس واحد، وبعض آخر يجمعهم، ولكن يميز القبائل والأمم برمز مخصوص، ولا غضاضة في كل هذا، على كل حال.

وجاء الالتفات في هذا العمل لـ «الأيام» في موضعه، فللحروب في شعر الأعشى منـزلة هامة أدبية وتاريخية، خاصة حديثه عن يوم ذي قار، وهذا الفهـرس من الجوانب المفيدة المبتكرة، وكذلك فهارس «المعاني والصور»، والفهارس اللغوية، ومن خلالها تنجلي بخاصة استعمالات الأعشى لعدد من الكلمات المعـرّبـة (مثـل الإبـريق، والأرجـوان، والإسفنط، والبـاطية، والبستان، والبنفسج، وما إلى ذلك).

أما آخر الفهارس فإنه ـ كما ألمعنا ـ يرصد مواضع الخلاف بين طبعتنا هذه وطبعـة جاير، وفي ضوئـه نتعـرف خاصة على النصوص التي أكملت استناداً للمخطوطة الجديدة التي استعان بها محققنا في سد الفجوات (وهي من مخطوطات المكتبة المتوكلية اليمنية).

وإذا كان لنـا شيء من التحفظ على الشروح التي تشغـل الصفحات اليمنى من الكتاب، لأن الشروح التي بالهامش فيها ـ فيما نزعم ـ الكفاية، وإذا كنا نسجل كذلك أنه لم يسجل ـ على غير عادة المحققين ـ أرقام صفحات

---

(١) انظر «فهرس الفنون الشعرية والمواضيع» ص ٤١٤ ـ ٤١٥.

الطبعة الأوربية على هامش صفحات طبعته، فإن هذا وذاك مما لا يقلل في شيء من الأهمية البالغة لهذا العمل الذي استغرق من صاحبه سنين طويلة من البحث والرّصد والتأمل، إلى أن برز للوجود في ذلك الإهاب العلمي الرصين، الذي يُعدُّ بحق من مآثر الدكتور محمد محمد حسين، والذي يكفل لاسمه أن يظل ـ وإلى ما شاء الله ـ ماثلاً في الأذهان، خالداً على مدى الأيام.

* * *

د. محمد محمد حسين
وجهوده الأدبيـــة

حين تطأ أقدام الزمن أحلام الشباب، يأتي محمد محمد حسين من وراء الغمام لكي يأخذ بيد الملاّح التائه، وينقذه من الضياع في لجج الحياة العاتية.

وحين تقسو القلوب أو تتحجر أو يعتورها برد الحياة اليومية، يأتي محمد محمد حسين وعلى وجهه تعلو بسمة وضاءة بالخير والنور، ليزرع ورداً في أرض الأشواك، وليجعل البيادر كلها حُبلى بمحاصيل القمح الإنساني، تلتقط منها القلوب ما تشاء، ثم توجَّه بعد ذلك نظراتُ العتاب لأنه لم يُعط أكثر وأكثر، فيضحك ويقول: إنما نحن بشر من طبيعتنا ألا نعطي إلا بقدر ما نقدر، وعندما يهاجمه المهاجمون بالباطل كان بطلاً محارباً شجاعاً حين البأس، تحاول المعاول أن تهدم ما يبني، وأن تئد ما ينادي به، وأن تحارب كل وليدٍ في كتبه، لكنه كان يجمع بين قوة الحِجَا، وسهولة الإقناع، ونصاعة المنطق، ومن هنا كان محارباً عاقلاً يردُّ على الحجة بالحجة، ويقرع الرأي بالرأي.

وإن أنس لا أنس يوماً مضى منذ سنوات طويلة خلت، وكنا ورفاقي من خريجي هذا القسم الميمون نقرع أبواب الحياة وفي يدنا إجازة الآداب الممتازة المقرونة بالشرف، وكانت الأبواب تصفع في وجوهنا البريئة ـ حينذاك ـ بقسوة وعنف يحدث صريراً وضجة في الأفئدة والعقول والنفوس الحائرة، وذهب كلٌّ منا حيث شاءت له الحياة أن يذهب، منَّا من سافر إلى الخارج مبتَعَثاً إلى إنكلترا أو فرنسا، ومنا من كان مصيره في دواوين الحكومة، ومنا من

مارس مهنة التعليم في وزارة المعارف أو التعليم الحر.

أما أنا فكان نصيبي العمل في المجلس الأعلى للفنون والآداب. حيث وجدت ملاذاً مع صفوة الأدباء والحكماء، ودخلت جامعة ثانية كانت تضم في لجانها عباس العقاد وزكي نجيب محمود وشوقي ضيف.. وغيرهم من علماء هذه الأمة.

وعاد محمد محمد حسين من رحلته في ليبيا، حيث كان مؤسساً من مؤسسي الجامعة الإسلامية فيها، وتولى مقاليد هذا القسم الميمون رئيساً له، فوجده يعاني من فقرٍ في دمائه، يتمثل في جيل الشباب من معيديه، وسأل عن أوائل خريجي الدفعات الماضية، وأخذ يبحث عنهم وينقب ويستدعيهم من بلادهم ووظائفهم وأماكن سكنهم في مصر أو الخارج، حتى اطمأن قلبه الكبير على أبنائه من الشباب، وأخذ بيدهم إلى مدارج العلم والعرفان، وكنت واحداً من هؤلاء الشباب الذين بحث عنهم محمد محمد حسين، وأخذ بيدهم، وشدّ أزرهم، وأيدّ خطاهم.

كلمة حق تقال لا بد منها حين نعرض لشخصية الباحث، لأنها جزء من بحثه لم ألجأ فيها إلى مرجع مكتوب، وإنما لجأت إلى مرجع من الأحياء الذين يُرزقون، ولو شئتم لأتيت لكم بمصادر ومراجع لا تحصى عدداً تتكلم وتملأ صحفاً ربما تكون أنصع من هذه الصحف.

ومحمد محمد حسين من جيل الروّاد الذين تفخر جامعة فؤاد الأول (القاهرة) بتخريجهم، وهو بالتالي من جيل الرواد أيضاً في جامعة الإسكندرية التي كانت فرعاً من الشجرة الأم في مصر المحروسة، ولا شك أن هذه الرِّيادة قد فرضت على صاحبها أمانة الكلمة ودقة التصور، فلا ينطق عن هوىً شخصي، أو عن حكم مسبق لا يُبنى على الأسس العلمية القويمة، وإنما يتأنّى ويتدبر ويزن الكلمات بميزان العدل، لأنه يدرك أن الريادة التي فُرضت

عليه وعلى جيله الذي حمل مسؤولية الكلمة في مصر والعالم العربي تفرض عليه أن يكون أباً لكل الآراء وصديقاً لكل الأفكار، لا يحارب الفكرة لمجرد الحرب، ولا يعادي الرأي لمجرد العداء، وإنما يستل حسامه إذا استوجب الأمر وإذا رأى إصراراً وعناداً واستمراراً في الخطأ يوجب عليه أن يستخدم يده بعد أن يطول استخدامه لقلبه فلا يجدي القلب، ثم لقلمه فلا تجدي النصيحة، عندئذ تخرج مؤلفاته لتحمي الحصون المهددة بالهدم من داخلها، ولتعلن الحقائق كاملة عارية من الزيف والخداع والتطرية لتبدو أفكارها في صورة الحسن غير المجلوب، حسن البداءة التي جُبل عليها، والفطرة السليمة التي فطره الله تعالى عليها.

ومحمد محمد حسين ابن بارٌّ من أبناء القرية المصرية بصبرها وجلدها، تلقي الحبَّة في الأرض، ثم تنتظر شهوراً قد تطول في انتظار الفرج الآتي، وقد يسقط البَرَد، أو تهاجم الآفات، أو ينقطع فيض المياه، عندئذ يموت الحَبُّ ولا يموت الحُبُّ، وتسقط الزهور ولا تسقط الآمال التي في الصدور، وتنحني الشجيرات الذاوية ولا تنحني الرؤوس والهامات المرتفعة، وهكذا كان محمد محمد حسين رجلاً من رجالات القرية المصرية في صعيد مصر، نُحِتَ وجهه الأسمر البسَّام من طين الأرض البار القوي الذي يمنح الحياة لملايين الملايين عبر العصور المتتالية، نظرات واثقة مطمئنة مليئة بالحنو والعطف، تملؤها العبرات لمنظر يتيمٍ يتألم أو مريضٍ يقاسي أو صاحب حاجة يُمنع، ويملؤها التصميم والعزم حين يدق النفير داعياً إلى الجهاد بالقلم والجَدَل. فهي عين المصري المرسومة على المعابد في الصعيد، وهي عين المصري المرسومة على وجه الطفل البريء والرجل الكادح والشيخ المجرب، وهو واثق الخطوات لا يدق الأرض دقًّا وإنما يلمس الأرض لمساً، كأنه يدري أن هذه الأرض من رفات الآباء والأجداد، فهو يحنو عليها لأنه يعلم علم المؤمن أننا جميعاً إليها صائرون وفيها نائمون.

وهو إذا نطق لسانه نطق بالحق، لا يسري قوله إلا كالنسيم العليل في صدور مريديه وأحبابه، إذا زرته وجدته في هيئته المهيبة، يلبس غطاء الرأس الأبيض، والجلباب الأبيض، قابعاً في مكتبته، وبين أصابعه مسبحته، وأمامه سجادة الصلاة، وحوله تطل كتبه من رفوف مكتبته، تحدثه ويحدثها حديث القلب للقلب، قائلاً لها: وخير جليس في الزمان كتاب.

ولأن الأستاذ الرائد نشأ في بيئة ريفية فلاحية من الصعيد، فهذه النشأة أثرت فيه تأثيراً قويًّا لا شك في ذلك، إنها بيئة تحافظ على الموروث، وترى فيه قدسية العرض وأمانة الشرف، ومن أجل ذلك فهي تنافح عما تركه الأجداد والأسلاف من آثار لا تنكر ولا تتكرر، قد لا يكون كلها خيراً، ولكن مما لا شك فيه أن جُلّها يحمل سمات أولئك الأتقياء الأنقياء الذين أنفقوا عمرهم كله بحثاً عن الحقيقة، وسعياً للدفاع عن الحق والخير والجمال. من أجل ذلك كان أستاذنا يحمل في طياته ميراث آلاف السنين من المحافظة على الموروث، وهذا شأن ريف مصر، إذا أضفنا إليه ريف صعيد مصر أيضاً كانت الصورة أوضح وأعم وأشمل.

وليس أدل على تلك المحافظة من أنك إذا قابلته بعد أن هجر الناس «الطربوش» وهجرهم، وجدته محافظاً على أن يعلو ذلك الهرم الأحمر الصغير هامته السمراء اللامعة، وظل على عهده هذا زمناً طويلاً حتى كان من المعدودين في أمتنا هذه ممن حافظ على الطربوش، وحافظ هو بدوره عليه أيضاً، فكان كلاهما وفيًّا للآخر، وحتى حين أراد أن يتركه استبدل به الذي هو خير، وهو لباس للرأس يحافظ عليه أهل الباكستان، فخرج من المحلِّية إلى العالمية في لباس الرأس، وهي عالمية إسلامية، وهو في ذلك غير مقلد لأحد، وإنما أراد أن يثبت مدى حبه ومحافظته على ما يعتقد، ويرى وهذه فضيلة لا تنكر ومحافظة لا تهزم.

إنّما أسهبتُ في بيان بعض الملامح المعبرة والمؤثرة في شخصية الأستاذ

لإدراكي بأن دراسة الأعمال الأدبية أو التواليف النقدية للرجل لا تتم إلا بعرض النموذج البشري الكامل، والاستبطان الفعّال لكل ما أحاط به من عوامل أثرت في تشكيل أدبه وبلورة آرائه، وقد فعل ذلك الأستاذ العقاد مع ابن الرومي، ونادى به الأستاذ محمد خلف الله ـ رحمه الله ـ في «الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده».

وفي ضوء ذلك التحليل يمكن التعرف على وجهات النظر التي جاءت في معظم كتب الأستاذ، ولأنه كالبحر في أعماقه الدر كامن، ولأن القضايا التي أثارها متعددة المناحي، كثيرة الجوانب، فإنني سوف أجعل همي محدّداً في تلك الموسوعة السياسية والنقدية والأدبية الرفيعة كتاب «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» بجزأيه الأول والثاني، وفي آخر طبعاته التي صدرت عام ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ميلادية عن مؤسسة الرسالة وهي الطبعة الرابعة، وقد قدم هذا البحث الجليل أول ما قدم لدرجة كرسي الأستاذية في الأدب الحديث بجامعة الإسكندرية، فكان العمل في حد ذاته أنموذجاً وضعه الرائد لما ينبغي أن تكون عليه من بحوث تلك الدرجة الرفيعة التي ما بعدها درجة من عمق واستقصاء، وتناول للموضوع الواحد من جوانبه كافة.

وكان اتجاه الأستاذ في بادىء الأمر أن يتناول الوطنية في شعر شوقي وهو معجب به كل الإعجاب، وأخص بالذكر ما يتناول شؤون الإسلام والمسلمين، ويمكن أن نقول إنه صاحب منهج في دراسة أمير الشعراء يختلف عن المناهج الأخرى، فهو يدرس شعره في ضوء التيارات والظروف المحيطة بالعالم الإسلامي بشكل يجعله أمةً في رجل ورجلاً في أمة، ولكن الأستاذ بعد أن جمع مادة بحثه عن شوقي ووطنيته، رأى الظلم الواقع عليه واضحاً ـ وها هنا تبدو ملامح شخصية الأستاذ إذ لا يقبل ضيماً أو ظلماً يقع عليه أو على أثيرٍ لديه ـ من أجل هذا وسّع دائرة المبحث عندما استعرض وجهات نظر المهاجمين لشوقي متهمين إياه بممالأة القصر، ومدح الخليفة العثماني عبد

الحميد، فوجد الأقلام المخلصة للدعوة الإسلامية حينذاك تتجه إلى تركيا العثمانية، تستنهض هممها، وتمدح فوزها في مجال الحروب الأوربية، وتمجد أسطولها وجيشها المنافحين عن راية الإسلام، ثم نظر الأستاذ إلى المطاعن الأخرى، كمدح أمير الشعراء للخديوي عباس حلمي الثاني، فوجد غيره من الشعراء الأفذاذ قد امتدحوه ومجدوه، وبالشعر خلّدوه، فلماذا توجه سهام النقد اللاذع إلى شوقي، وتصنع الدروع لحماية غيره من الشعراء، ولم ينفعل الأستاذ، ولم ينزل إلى ميدان المعارك الأدبية دون تزودٍ بكتائب المعرفة وبناءٍ لحصون الأدلّة والقرائن، فتناول المفاهيم السائدة حينذاك، وأولها مفهوم (الوطنية)، فوجد أن ذلك المفهوم يتطور بتطور الظروف والمعايش، وضرب مثلاً لذلك بخطأ من يحكمون على الشعر الجاهلي مثلاً بموازين حضارة هذا القرن.

ومن أجل هذا وجد الأستاذ أن المنهج الذي وضعه لدراسته عن وطنية شوقي يمكن أن يتطور وينمو ليكون بحثاً شاملاً كاملاً جامعاً للاتجاهات الوطنية في الشعر المصري باعتبار أن هذه الأمة تمثل العَصَب والقلب والإحساس النابض للأمة العربية جمعاء، وتوصل الرائد بفكره الثاقب إلى أن الحرب العظمى الأولى وضعت حدًّا فاصلاً بين عهدين اختلفت فيهما المفاهيم وتعددت الاجتهادات، ولذلك قسّم دراسته قسمين هما: ما قبل الحرب وما بعدها.

وفي دراسته الفترة التي سبقت الحرب الأولى تحدث عن الجامعة الإسلامية، وكيف كانت هدفاً نبيلاً يسعى إليه مخلصو المفكرين والشعراء والأدباء في مصر والعالم الإسلامي والعربي، باعتبار أن معظم البلاد العربية كانت تئن تحت وطأة الاحتلال، ولم تكن جثة هامدة، بل كانت تقاوم من أجل الحياة الشريفة المستقلة، ويسقط الشهداء من أبنائها كل يوم بل كل ساعة، ومع ذلك فهي مرفوعة الجبين والهامة، وربما اعتورها الضعف، ولكن

لم تشملها روح الهزيمة، ومن أجل ذلك كان تصور الصراع بين العرب والمغتصبين تصوراً لصراع بين الإسلام والصليبيين، وكانت تركيا رمزاً للتجمع الإسلامي والتفرق عنها تفرق عن جادة الإسلام وقصبته.

وكانت قضية الرائد الرئيسية هي الإسلام كما ورثناه عن السلف الصالح، وكما تعلمه في كتّاب قريته في أقاصي الصعيد، وكما لُقِّنه عن والده ـ رحمه الله ـ ذلك الشيخ الطيب الذي كان حريصاً على زيارة ابنه الذي يقابله بخير ما يقابل ابن أباه من حب وعطف وتوقير وإقبال، كما كان الأستاذ حريصاً على زيارة قريته، وكان يذهب إليها كلما عاد إلى أرض الوطن، وربما يوافق ذلك وقت الصيف، ومع ذلك كان يترك الإسكندرية ويتوجه إلى قيظ الصعيد الذي كان يرى فيه برداً وسلاماً وهو بقرب والده وأهله وبني قريته الذين يعتزّون به ويفخرون.

الإسلام في دم محمد محمد حسين ليس عقيدة فحسب، وإنما هو حياة وشِرْعةٌ كاملة، تنعكس على سلوكه وتصرفه اليومي المعتاد، وتشكل فلسفته وتعامله مع الآخرين، وكثيراً ما خاض المعارك الطاحنة ببسالة وشجاعة وقوة بأسٍ، مع من يستهزئون بشريعة الله، أو يخالفون أوامره، أو يتهاونون في أمر من أمور دينهم.

ومن أجل هذا التصور الكامل لدور الإسلام في بناء حياة الفرد والجماعة كان بحث محمد محمد حسين عن دور الإنجليز والفرنسيين وروسيا القيصرية في مواجهة الدولة العثمانية، وبروز دعوة الجامعة الإسلامية التي لم يكن بعض دعاتها من أعوان تركيا، وإنما كان همهم إنقاذ الأوطان الإسلامية من براثن الذئاب الصليبية.

وبذكاء حادٍّ وتتبع علمي مستقصٍ تناول الرائد فكرة نشوء القومية المصرية ممثلة في فكرة الجامعة المصرية، وكيف انتقلت هذه البذرة من الفكر

الغربي إلى المفكرين المصريين في مطالع هذا القرن، واعتبر أن قيام الثورة العرابية ومناداتها بالمساواة مع العنصر الشركسي المسلم صراع بين قوميتين، وانتصار للمصرّية ودعاتها، وهذه هي البذرة الأولى للشعور بالفرعونية بعد ذلك.

إن فهم الأستاذ الرائد لحركة التاريخ النامية والمتطورة يجعله دائماً يضع الأحداث المتراكمة والمتواكبة تحت المجهر، ويحللها ويفسرها ويدقق فيها تدقيق العالِم الذي يدري أنه سيخوض بحراً متلاطماً من الأفكار المترامية، لكنه على كل حال كان يجيد السباحة في أشد الظروف قسوة وقوة.

ومن خلال التاريخ تتبع روافد الأدب وجداوله، فوجد أن الشعر قد اتجه إلى استنهاض الهمم وبعث الأمل ومحاربة اليأس وكشف الغمة وبيان أفضال الأمة، منذ العصر الفرعوني إلى العصر الحديث، مستشهداً بأشعار أمير الشعراء في هذا المجال وغيره ممن تأثر بالظروف التاريخية المرحلية السائدة حينذاك.

وكان حديث الأستاذ في السياسة لا يُبارى، عمق تحليل، وسبق أحداث، ومعرفة بما وراء الحرف المكتوب أو الكلمة المنطوقة، ولذلك كان بحثه عن التيارات السياسية السائدة فيما قبل الحرب العظمى حديث عالم سياسة بالمعنى الدقيق للتعبير، إذ جعل الثورة العرابية نقطة البداية في اهتمام الناس بالمسائل السياسية، إذ بدأ مصطلح الظلم والمظلومين تتداوله الشفاه المحرومه الظامئة، وكذلك حق الناس في محاسبة السلطان ومساءلة المسؤول، والدعوة إلى النظام النيابي أو حق الشورى والعدالة الاجتماعية، والحد من تغلغل النفوذ الأجنبي.

وأدرك الأستاذ ببصيرته النافذة أثر الصحافة في تكوين الرأى ونشر الفكر ونهضة الأدب، فإذا ما مهّد هذا التمهيد الوافي أتى إلى لب الموضوع، وهو الحركة الوطنية وكيف كان ظهورها مواكباً لبدايات عصر عباس حلمي

الثاني، وكان وطنيًا في بداية حكمه، مما جعل قلوب المصريين الطيبة سياجاً من الحب حوله، وكان كذلك مؤيداً لقادة الحركة الوطنية في كفاحهم الضاري ضد الإنكليز، الأمر الذي أدى إلى اصطدامه بكرومر، ولم يصمد طويلاً فقد تراجع أمام المحتلّ مخذولاً، ولم يصبر على الكفاح، وانصرف إلى تنمية ثروته من كل طريق، واضطرب في سياسته، مما أدى إلى هدم سياج الحب الذي بناه الشعب حوله، وقدم الأستاذ نماذج ممتازة ومختارة من شعر الشعراء الذين امتدحوا عباساً في مرحلته الأولى، ثم انصرفوا إلى نقده والهجوم عليه في مرحلته الثانية المتخاذلة.

فإذا ما عرض الأستاذ لتأسيس الأحزاب السياسية، زادك إعجاباً بخطه الواضح وفكره المتألق وإلمامه الكافي كأحد أساطين السياسة، فتراه يتجول بين الحزب الوطني الذي يضم الكثرة المثقفة من الشباب، وهو حزب عنيف في معاداته للاستعمار. بدأ مؤيداً لعباس، ثم خاصمه لما رأى تخاذله، وهذا الحزب كان مهادناً للخلافة العثمانية لم يهاجمها، وربما كان الأستاذ معجباً بمصطفى كامل وبحزبه الوطني، لأنه يحمل بعض ملامح شخصيته المخلصة الوفية المنافحة عن الحق مهما كانت العواقب الزاهدة في مناصب الدنيا ووظائفها المنصرفة إلى هدفها الأسمى ومثلها العليا، والدليل على ذلك أنه حين يأتي إلى ذكر حزب ثانٍ تسمى باسم الحزب الوطني الحر، علق عليه قائلاً: وما هو بوطنيٍّ، وما هو بحُرٍّ، فهو دخيل باع نفسه للمحتلين، ويتمثل في صحيفة المقطم. ومن المقارنة بين تعليقيه على الحزبين نرى اطمئنان جانبه إلى حزب مصطفى كامل، وربما إلى شخصية الزعيم القوية المؤثرة.

وتطل شخصية محمد محمد حسين واضحة الملامح والقسمات من الأحرف والكلمات قويةً، حازمةً، مؤمنة، فهو حين يتناول النزعات الإصلاحية، يركِّز أولاً على الدعوات المتأثرة بالفكر الأوربي، وهي: الدعوة إلى الحرية الشخصية وإلى الحياة النيابية. والدعوة إلى فصل السلطة الدينية

عن السلطة المدنية وتحرير المفكرين من سلطان رجال الدين، والدعوة إلى تحرير المرأة من الجهل والحجاب، وتمكينها من المشاركة في الحياة العامة.

ثم تناول حركة الإصلاح الإسلامي التي تزعمها الشيخ محمد عبده وتابعه فيها بعض تلاميذه ومعاصريه، وقسم جهوده إلى قسمين: اتجه في أولهما - أيام اتصاله بالأفغاني - إلى محاربة ما استولى على المسلمين من ضعف الهمم وفتور العزائم، والانصراف عن جهاد الاحتلال. واتجه في الشطر الثاني إلى التوفيق بين الدين والمدنية الحديثة، وإلى الرد على كل ما يوجه إلى الإسلام من شبهات، وإلى تقريبه من نفوس الشباب الذين نفروا منه، متوهمين أن الجمع بينه وبين المدنية والعلم غير مستطاع، وكان من أهم ما اتخذه لذلك من وسائل إصلاحه للأزهر، وفتاواه التي كان يجيب بها على السائلين من مختلف الأقطار الإسلامية، ودروسه التي كان يحضرها عدد كبير من المثقفين والوجهاء.

وكان محمد محمد حسين منظم الفكر مرتباً في كل شؤون حياته الخاصة والعامة وقد انعكس هذا انعكاساً مباشراً على كتاباته، وفي هذا الكتاب الذي نحن بصدده على وجه الخصوص، فهو إذا تفرغ للجزء الثاني منه انبثقت خمسة جداول غنية بالعطاء المتألق واللؤلؤ المنثور، فتراه يتناول الخلافة الإسلامية ويتتبع تطوراتها، والجامعة العربية ونشأتها وما لا بسها من ظروف وما قابلها من صعوبات، والمعارك التي قامت بين فريقي المقلدين والمجددين أو بين المحافظين ودعاة التطوير، فيرجع الخلاف إلى أصوله، مبيناً علله وأهدافه، ويعرضه في شتى صوره ومظاهره من وجهات النظر المختلفة، ثم يتناول الدعوات الهدامة التي تستهدف الدين أو الخلق أو اللغة، وهي العمد التي يقوم عليها المجتمع ويتماسك، والتي من أجلها جاهد محمد محمد حسين طوال حياته حتى اليوم الأخير فيها. وكان آخر ما كتبه في هذا البحث المعبر عن شخصيته، زفرة انطلقت من صدره المؤمن عن انشغال المصريين

بأنفسهم، واستنفـادهم جهـودهم واستنـزافهم قواهم في خلافهم الـذي صرفهم عن مقاومة المحتل الغاصب، وكأني به الآن يردد ما قاله وما كان يقوله دوماً عن اتحاد المسلمين والتفافهم حول راية القرآن.

لقد كان محمد محمد حسين أمة مسلمة ممثلة في رجل مسلم.

دكتور/ يسري سلامة
٢٤ / ١٢ / ١٩٨٣

* * *

موقف الدكتور/ محمد محمد حسين
من الدراسات اللغوية الحديثة

عرفت مصر اتجاهاً جديداً في التحليل اللغوي أوائل هذا القرن حين افتتحت الجامعة المصرية، وحين وفد إليها عدد من المستشرقين الأوربيين، وكان هذا الاتجاه ينحصر في التحليل الفيولوجي للغة، وهو المنهج الذي كان سائداً في أوروبا في القرن التاسع عشر، وقد طبقه هؤلاء المستشرقون على العـربية، وبخاصة في ميدان المقارنات السابقة، وغني عن البيان أن هذا الاتجاه لم يكن ليلقى شيئاً من المعارضة، لأن طبيعة المقارنات السابقة تقتضي الاعتماد على النصوص المكتوبة - أو على النقوش القليلة التي تم العثور عليها - وهي كلها نصوص تنتمي إلى المستوى الفصيح من العربية. وقد أفضى هذا الاتجاه إلى ترجمة «الفيلولوجيا» إلى «فقه اللغة»، وهو في حد ذاته تعبير غربي قديم، وإن يكن مختلفاً في المنهج، غير أنه أسهم في قبوله، حتى إنه ظل مستعملاً عنواناً لنوع معين من الدرس اللغوي في الجامعات والمعاهد العربية.

ثم أُوفـد عدد من الـدارسـين المصريين إلى أوربـا في القـرنين الرابع والخامس من هذا القرن، وكانت أوروبا قد انتهت من دراسة الفيلولوجيا باعتبارها لا تقدم تفسيراً «علميًّا» للظواهر اللغوية، وأخذت تقبل على هذا العلم الجديد الذي أسسه دي سويسير في محاضراته التي كان يلقيها بجامعة ضيف والتي أصدرها طلابه سنة ١٩١٣ في كتاب يحمل اسم: «محاضرات

في علم اللغة العام». وقد أقبل الباحثون الغربيون على هذا العلم يطورون أدواتـه، ويوسعـون ميدانـه، حتى استقرت أصوله فيما يعرف بعلم اللغة الوصفي أو علم اللغة البنائي.

وكـان أول من قدم هذا العلم إلى قراء العـربية أحـد الدارسين غير المختصين، وهو الدكتور/ علي عبد الواحد وافي الذي قدم كتابين، أحدهما «فقه اللغة»، والآخر «علم اللغة» وقد أسهم هذان الكتابان في الخلط بين الاتجاهين، وفي عدم فهم المقصود من كل علم منهما مما لا يزال أثره باقياً عند بعض الناس.

على أن أول رائـد حقيقي قدم علم اللغة بمعناه الحقيقي هو المرحوم الدكتور/ إبراهيم أنيس الذي أصدر عدداً من الكتب عن الأصوات اللغوية والدلالة واللهجات العربية القديمة وغيرها، ثم تلاه جيل آخر من الباحثين الذين درسوا في أوربا واتصلوا بعلم اللغة في تطبيقاته الواسعة، وكان معظم هذا الجيل من دار العلوم، منهم: تمام حسان وعبد الرحمن أيوب وكمال بشر، ومنهم من جامعة الإسكندرية أستاذنا المرحوم الدكتور/ محمود السعران الذي قدم أوضح كتاب حتى الآن عن علم اللغة.

وقد ذهب الناس في مصر حيال هذا العلم ثلاثة مذاهب:

* مذهب يراه خطراً شديداً على العربية الفصيحة، ويرى أن التراث العربي القديم صالح لدرس العربية كما كان صالحاً لحملها هذه القرون الطويلة، ومن ثم تشددوا في محاربة علم اللغة، ونادوا بإغلاق جميع المنافذ حتى لا يدخل إلى الدراسات الجامعية.

* ومذهب يرى أن النحو العربي ليس صالحاً بمنهجه القديم في درس العربية لأسباب كثيرة مما تظهر آثاره في الضعف الواضح في مناهج تدريس العربية في التعليم العالي وفي الجامعات، ومن ثم يرى أصحاب هذا الاتجاه إغفال

المنهج القديم إغفالاً تامًا والأخذ بمناهج علم اللغة الحديث.

* ومذهب ثالث يمثله الجيل الذي ينتمي إليه صاحب هذه الكلمة ونرجىء الحديث عنه إلى موضعه.

كان أستاذنا الدكتور/ محمد محمد حسين أحد أقطاب المذهب الأول، ولعله أوضحهم رأياً، وأكثرهم إعلاناً لفكره تجاه هذا العلم، فلم يتردد يوماً في إبداء رأيه في القضية، فحاضر عنها وكتب، وقدم مذكرات رسمية حين اقتضته الحاجة إلى ذلك، والحقُّ أن رأيه في الموضوع يتسق مع مذهبه العام في الفكر وفي الحياة، الذي يتركز في الدفاع عن العربية الفصحى باعتبارها مظهر التوحيد في العالم العربي، وباعتبارها حاملة التراث الإسلامي، ويتركز أيضاً في تمايز المنهج الإسلامي بخصائصه المعروفة التي لا ينبغي أن تتلاشى أو تختلط بخصائص المناهج الإنسانية الأخرى.

- وتتلخص آراء أستاذنا عن الدراسات اللغوية الحديثة في النقاط التالية: -

(١) إن الدراسات اللغوية الحديثة ليست مستقرة عند أصحابها من الأوربيين، وإنها لا تزال تخضع كل يوم للتغيير.

(٢) إن هذه الدراسات تهتم بما يتكلم به الناس فعلاً، لا بما يجب أن يتكلموه، ومن ثم لا تفرق بين المستوى الفصيح والمستوى العامي من اللغة.

(٣) إن هذه الدراسات أخذت - في سبيل بناء منهجها الحديث - تنقد المناهج القديمة نقداً شديداً.

(٤) إن هذه الدراسات لا تهدف إلى دراسة لغة بذاتها، وإنما تسعى إلى وضع منهج ينطبق على اللغات الإنسانية جميعها.

وهذه النقطة على وجه الخصوص كانت كفيلة أن تثير لدى أستاذنا كثيراً من الشكوك، لأنها تندرج في نظريته العامة عن «الدعوة إلى العالمية» وما تحمله من أخطار.

ومن المناقشات الكثيرة جدًّا التي دارت بيني وبين أستاذنا على مدى ربع قرن من الزمان، لا أشك لحظة في أنه قد كانت لديه المسوغات الكافية لهذا الموقف، وأن هذه المسوغات هي التي قدمها التطبيق الفعلي لعلم اللغة في الجامعات المصرية، ولعلي أوجز ذلك فيما يلي:

(١) النمو من المسيطر على موضوع الدراسة وأدواتها ومصطلحاتها.

(٢) الهجوم العنيف الذي قاده أساتذة علم اللغة على التراث النحوي العربي، ووصفه بأنه نحو معياري، وأنه لا يمثل إلّا عربية خاصة بمكان وزمان معينين، بل لا يمثل إلّا مستوى خاصًّا من هذه العربية، وأنه نحو فلسفي منطقي اعتمد على المنهج الأرسطي في التفكير، ومن ثم فهو نحو صوري لا يمثل الواقع اللغوي الفعلي.

(٣) فتح باب دراسة اللهجات العامية باعتبارها مصدراً طبيعيًّا للبحث، وكذلك استعمال العامية في تدريب الطلاب على تحليل المستويات اللغوية من صوتية وتركيبية ودلالية.

(٤) ثم تأكدت الشكوك لدى أستاذنا عند الانزلاق في مناسبة خاصة إلى الشك في وثاقة النص القرآني الكريم.

ومن الواضح وضوحاً كاملاً أن هذا الموقف عند أستاذنا لم يكن من أجل الموقف ذاته، ولم يكن تمسكاً جامداً، بل كان رد فعل طبيعيًّا لما أوضحته آنفاً من التطبيق الفعلي لعلم اللغة في معاهدنا العلمية، وقد جرت بيني وبينه مناقشات كثيرة في السنوات الأخيرة كان ينصت إلي فيها إنصات المتفهم لما

تصدر عنه، وإن كان يلجأ في أغلب الأحيان إلى «سد الذرائع»، وهو موقف نتفهمه نحن أيضاً ولا نلتوي عليه.

وهنا يبرز المذهب الثالث الذي أشرت إليه صدر هذه الكلمة، وهو ما نراه من أن الانكفاء على القديم وحده وإغلاق النوافذ جميعها فيه خطر الجمود، وأن الانبثاق عن هذا القديم والارتماء في أحضان الحديث وحده فيه خطورة المسخ، وأن الصواب أن نقول بأن التطور من سنن الحياة، وأن التطور الحقيقي لا يكون إلا من الداخل، أي: إنه لا بد أن يصدر عن فهم عميق لأصول التراث، على ألا يُغفل لحظة عما تستحدثه الحياة، بشرط ألا يفضي ذلك إلى الأخذ الأعمى، بل إلى تمثل الجديد تمثلاً ذاتيًّا يشبه التمثيل الضوئي في النبات، بحيث يصدر الفعل النهائي ممثلاً للخصائص الشخصية.

ولقد تأكد لدينا هذا الموقف حين كنا نرى في أساتذتنا الذين ارتادوا البحث اللغوي تعجلاً في الحكم على التراث العربي، وذلك أن التطور الطبيعي في الغرب أفضى إلى ظهور نظرية لغوية قوضت أركان علم اللغة البنائي الذي اعتمد عليه أساتذتنا، تلك هي نظرية النحو التحويلي التوليدي التي رأينا فيها اقتراباً كبيراً جدًّا من الأصول التي صدر عنها النحو العربي القديم.

صحيح أن هذه النظرية قد طورت أساليب علمية متفرقة جداً في تحليل اللغة، وفتحت آفاقاً جديدة لم تكن معروفة من قبل في محاولة للتقدم نحو فهم أفضل للطبيعة الإنسانية التي تتجلى في أغلب ظواهرها في طبيعة اللغة. إلا أن النظرية الحديثة قد استبعدت نهائيًّا طريقة التفسير الآلي الذي اعتمدت عليه المدرسة البنائية، وعادت إلى التفسير العقلي الذي يميز الدراسات الكلاسيكية، باعتبار أن اللغة ليست أداء مكتسباً، وإنما هي غريزة إنسانية طبيعية، بدليل أن الناس جميعاً يولدون وعندهم قدرة مركوزة على تعلم

اللغة، بل على تعلم أية لغة، ويتدرج النحو اللغوي عند الأطفال بطريقة واحدة في جميع اللغات إلى آخر ما هنالك من الأسس العامة لهذه النظرية مما لا مجال لعرضه هنا.

والـذي يهمني هنـا أن أوكد أن موقف أستاذنا من الدراسات اللغوية الحديثة لم يكن موقفاً مغالياً حينذاك، لما كان يتأكد كل يوم من شكوك عند التطبيق غير الصحيح لعلم اللغة البنائي، على أني أريد أن أذكر أيضاً أن الانتفـاع بالتـطور المعاصر في علم اللغة الحديث يفيد َدرس العربية إفادة حقيقية، بل إن درس اللهجات واللغات الأخرى يعيننا على تفسير كثير من الـظواهر التي لا نستطيع تفسيرها إلا على ضوء الخبرة الحقيقية بالمستويات المختلفة من الأداء اللغوي.

* * *

موقف الدكتور/ محمد محمد حسين من قضية الصراع بين القديم والجديد

إن الفكرة السائدة بين كثير من دعاة التطور والتجديد، عن الصراع بين القديم والجديد، هي أنه مطلب حضاري، وذلك لارتباطه بتقدم الإنسان وتطوره، وسعيه المتواصل إلى تغيير أنماط حياته ووسائل معيشته، وعمله على تنمية ثقافته وفكره.

ولعل أهم ما يميز هذا الصراع حيويته وتجدده على مر الزمن، فهو حي باق ما بقيت الحياة، «فمادامت هناك حياة، فهناك قديم وجديد، وجهاد بين القديم والجديد، وأنصار للقديم وأنصار للجديد»(١).

وغالباً ما ينشأ هذا الصراع في فترات التحول الاجتماعي، أو التطور الحضاري الذي تمرُّ به أمة من الأمم، وذلك لتباين مواقف الناس من التطور، واختلاف أمزجتهم حياله، فقد يُقبل عليه بعضهم ويتفاعل معه، وقد يحجم عنه بعضهم وينفر منه. ومن هنا ينشأ الصراع بين المقبلين على الجديد، وبين المعرضين عنه، ويحاول كل منهم أن يدافع عن موقفه بكل ما أوتي من عدة وعتاد ثقافي وفكري.

وقد يبدو هذا الصراع الحضاري أحياناً هادئاً، وينتهي بظهور اتجاه وسط بين المتطرفين من المحافظين، والغلاة من المعتدلين، اتجاه لا يرفض

(١) «حديث الأربعاء» لطه حسين، جـ ٣ ص ٣١.

القديم، ولا يرفض الجديد جملة، ولكنه يرفض بعض هذا، وبعض ذاك، ويأخذ من كل منهما أحسن ما عنده، أو ما يراه متفقاً مع ذوقه ووجدانه، وصالحاً لعصره ومجتمعه.

وقد يشتد هذا الصراع أحياناً ويعنُف، وترتفع حدته يوماً بعد يوم، مما يترتب عليه اتساع دائرة الخلاف بين المحافظين ودعاة التجديد. ويحدث هذا عندما يشعر المحافظون بأن الجديد خطر يهدد ماضيهم وحاضرهم، فقد يكون نباتاً غريباً نشأ في أرض غير أرضهم، وتسرب إليهم مع بعض الغزاة أو المستعمرين، سواء أكان هذا الاستعمار سياسيًّا، أم عسكريًّا، أم فكريًّا. ومن ثم، يهب المحافظون والوطنيون لدفع هذا الخطر عنهم، ويشتعل لهيب الصراع بينهم وبين أصحاب الجديد ودعاته، ومن هنا يأخذ هذا الصراع بعداً قوميًّا، ويصبح بذلك قضية قومية.

والمتأمل الواعي لوجهة نظر الدكتور/ محمد محمد حسين في هذا الصراع، يلحظ أنها تتطابق وهذا البعد القومي، ويتضح هذا من قوله عن مفهوم القديم والجديد: «أطلقوا على كل ما يتصل بتراثنا من قيم دينية وخلقية وأدبية اسم القديم، وفي مقابل ذلك سموا كل طارىء مستجلب مما شاع عند الغرب، ومما رث وبلى من أنماطه في بعض الأحيان باسم الجديد»(١).

والواقع أنه يصدر في هذا الرأي على وجهة النظر السائدة آنذاك، بين المحافظين والمجددين حول مفهوم القديم والجديد، الذي يبدو من فحوى قول أحد المحافظين، محدداً مفهوم كل من هذين المذهبين: «ما هو المذهب الجديد؟ أنأخذ بالمقابلة فنقول: إذا كان الأبيض هو القديم، فالأسود هو الجديد، وإذا كانت الفصاحة، وإذا كان الحرص على ميراث التاريخ، وإذا كان القانون الطبيعي للفضيلة الاجتماعية، وإذا كنا نولد بجلود كجلود

---

(١) «أزمة العصر»: ص ١٤٠.

آبائنا، فالركاكة، وإهمال القومية التاريخية، والتحلل من قيود الواجبات، والانسلاخ من الجلد ـ لأنها ليست أوربية ـ كل هذا جديد لأن كل ذلك قديم»[1]. كما يبدو كذلك من قول أحد المجددين محدداً مفهومه للجديد هو: «أن نسير سيرة الأوربيين لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها»[2].

ومما يدل كذلك على صحة القول بأن مفهومه لهذا الصراع، يعد مفهوماً قوميًا، ملاحظته الدقيقة للبداية الحقيقية لنشأة هذا الصراع في عصرنا الحديث، والتي يرجعها إلى عصر محمد علي «حين سافر كثير من المصريين في بعثات تعليمية إلى أوربا، وحين قدم إلى مصر كثير من الأساتذة الأوربيين وخبرائهم»[3]. وقد ترتب على ذلك، كما يدل، حدوث صراع بين أنصار القديم القومي، وبين أنصار الجديد الأجنبي، وقد اشتد هذا الصراع وعنف في عهد إسماعيل[4]، وهذا يكشف لنا عن حقيقة هامة تتعلق بمكمن هذا الخطر، وهي أن الفترة التي شهدت عنف هذا الصراع، كانت فترة ضعف عسكري واقتصادي واجتماعي، نظراً لوقوع البلاد آنذاك تحت نير الاستعمار الإنجليزي، ومحاولة المستعمر وأذنابه دفع المجتمع نحو كل جديد موفد من قبلهم. «فالتسمية في نفسها التي أطلقتها الصحف وروجتها وأذاعتها، حتى أصبحت هي سبيل الناس المألوف للتعبير عن المذهبين، تسمية خبيثة غير بريئة، وغير منصفة للحقيقة»[5].

والواقع أن هذا الصراع، يعد من وجهة نظره، صراعاً بين أصالة

---

(١) «تحت راية القرآن» للرافعي ص ١٢.

(٢) «مستقبل الثقافة» لطه حسين ص ٤١.

(٣) «الاتجاهات الوطنية» جـ ٢ ص ١٩٠.

(٤) «الاتجاهات الوطنية» جـ ١ ص ٧٣ ـ ٧٥.

(٥) «الاتجاهات الوطنية» جـ ٢ ص ٢٠٩.

المحافظين وتقليد المجددين، وبناء على هذا يتضح لنا، أن لم يقتصر في تعاطفه مع المحافظين على الوقوف إلى جانبهم، ولكنه تعدى ذلك إلى تصحيح موقفهم، ونفى صفة التقليد عنهم، فهم ليسوا مقلدين جامدين للقدماء، ولكنهم أصلاء، يحافظون على تراثنا وقوميتنا.

ولكن هل يعني موقفه هذا من المحافظين رفضه المطلق للجديد؟؟ إن الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال، لا ينبغي أن تكون لا أيضاً. . !! وذلك لأن وقوفه إلى جانب المحافظين، لم يمنعه من الاعتراف بوجود الاتجاه الجديد. الذي يعتبر بقاؤه إلى جانب القديم ضرورة من ضرورات المجتمع، وذلك لأن الصراع بين القديم والجديد، يحافظ على توازن المجتمع واستقراره، يقول: «والواقع أن المعركة بين أنصار القديم الموروث وبين أنصار الجديد الطارىء ضرورية لسلامة المجتمع. فالمحافظون يحدون من طيش المندفعين إلى طلب كل غريب طارىء، ومن نزق الذين يجرون وراء كل طريف برّاق، مما يفقد الحياة ما يلزمها من الاستقرار الذي يحقق الطمأنينة ويمكن من البناء. ودعاة التطور يحولون بين المحافظين وبين الركون إلى الكسل. ويخرجون الجماعات عما تصاب به من التبلد والجمود والركود نتيجة للعكوف على الموروث، وتكراره تكراراً آليًّا، يعطل التفكير والملكات الإنسانية، وذلك لأن دعاة التطور يجبرون المحافظين على الدفاع عن أنفسهم، فيحتاجون في الدفاع إلى التسلح بأسلحة خصومهم، ودراسة ما يستطرفون من مذاهب، في حين أن مهاجمة المحافظين لدعاة التطور تضطرهم إلى الحد من غلوائهم، وتنبه المجتمع إلى مواطن الضعف والشر فيما يستجلبون»(١).

وعلاوة على ذلك، فهو لا يرفض التغيير، ولا مبدأ التطور، لأنه يرى أن تطور المجتمع وتغييره إلى حال أحسن من حاله، أمر ضروري لتقدم الأمم،

(١) «أزمة العصر» ص ١١، «والاتجاهات الوطنية» جـ ٢ ص ٢٠٩ ـ ٢١٠.

والمجتمعات الإنسانية، فالحياة كما يقول «حركة ولو أراد الناس الجمود وقصدوا إليه ما استطاعوه، والذين يحكِمون إغلاق النوافذ والأبواب في السلم، يُكْرَهون على فتحها في الحرب. فكل شيء في الحياة متغير، والناس مضطرون إلى أن يلائموا بين أنفسهم وبين الواقع المتغير، ماداموا لا يستطيعون دفعه وتغييره»[1].

ولكن لا ينبغي أن يفهم من هذا، أنه يؤمن بالتطور المطلق، أو التغيير دون حدود أو ضوابط. !! وذلك لأنه مع إيمانه بالتطور والتجديد، يرى أن للتطور حدوداً، لا ينبغي تجاوزها أو الخروج عليها «فليس التطور نفسه هو المحذور، ولكن المحذور هو أن يخرج هذا التطور على الأساليب المقررة المرسومة، وذلك يشبه تقيد الناس في حياتهم الاجتماعية بقوانين الدين والأخلاق، فليس يعني ذلك أنهم قد استُعبدوا لهذه القوانين، أو أنها قد أصبحت تحول بينهم وبين مسايرة الحياة بخيراتها ولذائذها. ولكنه يعني أنهم يستطيعون أن يغدوا وأن يرجعوا كيف شاؤوا، وأن يستمتعوا بخيرات الدنيا وطيباتها، ويتصرفوا في مسالكها، ويمشوا في مناكبها، كل ذلك في حدود ما أحل الله»[2].

ويبدو هذا الموقف من التطور واضحاً، من قوله في موضع آخر: «وتواصل الأمم يؤدي إلى تبادل الثقافات، ولكن الأمم والأقوام ليسوا في ذلك على سواء، فالأمم الحية تملك القدرة على النقد والتمييز، فتستحسن وتستهجن وتعرف الصحيح من الفاسد، وهي بذلك تهضم ما تقتبسه مما تستحسنه عند غيرها وتمتصه وتفنيه في ذاتها، والمهم في ذلك كله هو أن يكون الاقتباس والتطور على كل حال بالقدر الذي لا ينقلنا عن جبلتنا، ولا يغير

---

(١) المرجع السابق ص ١٠.

(٢) «حصوننا مهددة من داخلها» ص ٢١٦.

حقيقتنا، ولا يقطع صلتنا بالماضي»[1].

وعلى هذا، فهو يرى قبول بعض ألوان من الجديد، إن كان ذلك لا يمس وجدان الأمة، ولا يؤدي إلى زعزعة قيمها الروحية، وعاداتها وتقاليدها. ويغلب أن يكون هذا الجديد حقيقة ثابتة، أو مظهراً من المظاهر المادية للحضارة، فليس هناك خلاف بين الأمم والشعوب على تبادل المظاهر المادية للحضارة، وعلى استعارة الحقائق العلمية، التي تتميز بالثبات ولا تقبل التغيير والتطوير، ويبدو هذا واضحاً من قوله:

«حين تلتقي الحضارات، لا يدور الصراع بينها حول الحقائق الثابتة التي لا تتغير بين بلد وبلد، ولا تتميز في قوم عنها في آخرين، ولا تختلف باختلاف الزمان والمكان، كالدراسات النظرية من رياضية وطبيعية وكيمائية وحيوانية ونباتية، وممارستها على اختلاف أنواعها في عالم الصناعة والطب والزراعة، وإنما يتعلق الخلاف ويدور الصراع دائماً حول ما تقوم به شخصية الفرد والجماعة، مما يميزها عن غيرها من الجماعات. ومصدر الشخصية في كل الأحوال وصورتها وظلها في الوقت نفسه هو الدين، والأخلاق، والتقاليد، والعادات، والفنون، والآداب، لأن الأمر في كل هذه المجالات جميعاً لا يتصل بالملموس المحسوس أو المعقول المشترك، كما هو الشأن في الدراسات التجريبية أو الرياضية، ولكنه يتصل بقيم الخير والشر والجمال والقبح والحق والباطل والحرام والحلال، وهي تعتمد في كثير من الأحيان على ما وراء المادة من الغيب الذي لا تتفق عليه، ولا تشمله التجربة، ولا يتطاول إليه الفكر»[2].

وهذا يفسر لنا سر هجومه العنيف على بعض الغلاة من المجددين[3]،

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» ص ٢٣١.

(٢) «أزمة العصر» ص ١٤.

(٣) مثل سلامة موسى في كتابه «اليوم والغد»، وطه حسين في «مستقبل الثقافة».

الـذين كانوا يهدفون من وراء دعوتهم الناس إلى الأخذ بأساليب الحضارة الغربية الحديثة، والإفراط في التجديد، إلى رفض القديم جملة، وقطع الصلة بين حاضرنا وماضينا، وأبعد من هذا التشكيك في أصولنا القومية، ومنابعنا الثقافية، وحمل الناس على الاعتقاد الخاطىء بأننا أقرب في أصولنا القومية ومنابعنا الثقافية وتراثنا إلى أوربا والغرب منه إلى العرب والشرق[1].

وعلى أية حال، فإن موقفه من هذا الصراع، لا يقتصر على وقوفه إلى جانب المحافظين وإنصافه لهم، وهجومه على الغلاة من المجددين، ولكنه يتعدّى ذلك كله، إلى مناقشة آراء المجددين وتفنيدها، والوصول من خلال ذلـك إلى تأصيل تراثنا وقيمنا، وإن موقفه من دعاة تطوير الأدب هو خير شاهد على هذا. فالأدب العربي، يعد في رأيه مظهراً من مظاهر قوميتنا، التي يجب أن نحافظ عليها، ونعتز بها، ونسعى دائماً إلى ترسيخ أصولها وقيمها في نفوس الأجيال الجديدة، ولهذا فلا يصح بأي حال من الأحوال، أن تؤدي الدعوة إلى تطوير الأدب أو تجديده إلى طمس معالمه، وإذابة شخصيته في شخصيات بعض الآداب الأجنبية، فللأدب العربي طابعه الخاص الذي يميزه عن الآداب «فيه الوزن في أكمل صورة، الذي يقوم على توازي الساكن والمتحرك، وتساويه. وفيه القافية، التي تتوالى على مسافات زمنية متساوية، تبرز الوزن، وتحدد بدء وحداته ونهاياتها. وفيه الصقل والتنغيم الذي يزف البيت إلى سامعه صاخباً حيناً، وهامساً حيناً آخر، وحزيناً متراخياً تارة أخرى. وفيه الصور والألفاظ والأساليب العريقة التي تجر وراءها تاريخاً حافلاً طويلاً، والتي تتضمن قدرة على الإثارة والايحاء، تجمعت حول نواتها جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن، خلال تنقلها بين الشفاه والآذان، وتقلبها بين المعاني والأغراض، فأصبحت بذلك كأنها مفاتيح سحرية لأودية عبقرية»[2].

---

(١) «الاتجاهات الوطنية» جـ ٢ ص ٢٢١ ـ ٢٤٢.

(٢) «الإسلام والحضارة الغربية» ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

وتوافر هذه الصفات في أدبنا العربي منذ أقدم عصوره حتى الآن، لا يعني في رأيه وصف هذا الأدب بالتحجر والجمود، وعدم الرغبة في التطور، كما يزعم بعض الزاعمين، وإنما هو على العكس من ذلك التصور، أدب حي متطور، يقول: «على أن ذلك الطابع الخاص المميز للأدب العربي عما سواه، لا يعني الجمود كما يزعمه الزاعمون، ولا يقود إليه في أي حال من الأحوال، وذلك لعدة أسباب، أولها: أن الجمود صفة لا وجود لها في الحياة لأن الحياة حركة، ولأن الكائن الحي لو أراد الجمود وقصد إليه لما استطاعه، فكل شيء في الحياة متغير، والناس مضطرون إلى التعبير عن أنفسهم وعن الحياة في مختلف نواحيها، في أدبهم، وفي صحفهم، وفي إذاعاتهم، وفي قصصهم، وفي كتبهم العلمية»[1].

وبرغم هذا كله، فهو يرى أن دعاة التطور الأدبي، يخطئون حين يظنون أن بوسعهم حمل الأدب على التطور. ذلك لأن تطور الأدب، قضية حضارية واجتماعية أصلاً، لأن هذا التطور مرتبط بتطور الأمة، وتغير أحوالها الاجتماعية، فالأدب صدى عصره ومجتمعه. ولذا فإن تطور الأدب مرهون بتطور المجتمع «فالآداب الضعيفة لا تحمل على النهضة حملاً، ولا تدفع إلى التطور دفعاً. . . لأن ركود الأدب ونشاطه يتبع حال الأمم، فالأدب صدى للبيئة، وسجل لحال الأديب ومحيطه، فالأمة الناهضة التي تزخر نفوس أفرادها بالأمل والطموح لها أدب متوثب يتفجر نشاطاً. والأمة الخاملة الراكدة لها أدب ميت، يردد في بلادة ما قيل، كأن الألفاظ فيه أكفان لا تضم إلا جثثاً. والأمة المستضعفة الذليلة لها أدب خاشع تحشوه عبارات الضراعة المستكينة. والأمة العابثة اللاهية لها أدب يصور تفكك عراها، وانفصام وحدتها، ترى الأديب فيها مشغولاً بنفسه وبشهواتها، لا يبالي بما يجري حوله شيئاً. ولو أمِدّت الأمة الضعيفة بأدب قوي، وحُشيت به أفواه أدبائها، لم

(١) المرجع السابق ص ٢٢٧.

يلبث بعد جيل أن يعود إلى جِبِلة المنقول إليهم وطبعهم، لأن معدهم الضعيفة لا تهضمه، فهو كالنبات الغريب المنقول إلى غير بيئته، لا يلبث أن يفقد خصائصه ويتوطن مرتدًّا إلى مثل خصائص نبات الإقليم المنقول إليه.

فليرح دعاة تطوير الأدب بدعوى إنهاضه أنفسهم مما يتكلفونه من عناء، فالأدب إذا نهض بنهضة الأمة عرف طريقه، وهو يشقه بدافع من طبيعته، وبتوجيه من فطرته وقيمه ومصلحته وتاريخه»(١).

ومن أهم ما يأخذه على هؤلاء، محاولتهم صبغ الأدب العربي بصبغة الأدب الأوربي، بحيث يصبح صورة منه، وتطبيقهم تبعاً لهذا قواعد النقد الأوربي عليه، وقياس جودة العمل الأدبي أو رداءته، بمقاييس مستعارة من هذا النقد الأجنبي، ويتضح هذا من قوله: «فهم لا يستحسنون من تراث العرب إلا ما وافق مذهباً من مذاهب الغرب، ويقحِمون على هذا التراث كل ما يجدونه في أدب الغرب، ولا يجدون له نظيراً عندنا»(٢)، وقوله كذلك: «وفتنوا بها استحدث الغرب من مذاهب كانت صدى لظروف خاصة في البيئات التي أنتجتها، كالرومانسية، والرمزية، والسوريالية، والوجودية. وبعضها من مظاهر التدهور والانحلال، فدعوا إلى مثلها في الشعر العربي، دون أن يكون من وراء ذلك هدف إلا التقليد. وسمَّوا الذين يكتبون في أسلوب آبائهم وأجدادهم وعشيرتهم، ويجرون على أنماطهم مقلدين وجامدين»(٣).

ويرى أن من أهم المآخذ التي أخذها بعض المجددين على الشعر العربي، عدم وجود وحدة عضوية بالقصيدة، وتقيدها بقيد الوزن والقافية، وغلبة المدح والمناسبات على هذا الشعر، مما يفقد الشاعر شخصيته، ويجعله

(١) المرجع السابق ص ٢٣٢.
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٢.
(٣) المرجع السابق ص ٢٣٥.

أقرب إلى الراوي والقاص منه إلى الشاعر.

وبعد أن يورد هذه المآخذ، ينتقل إلى تفنيدها واحدة واحدة، مستعيناً في هذا بكثير من الحجج العقلية، والتاريخية، يقول: «وزعموا أن القصيدة العربية مفككة لأن وحدتها البيت، ولكن ليس صحيحاً أن ذلك قد أدى إلى تفكك القصيدة، فوحدة البيت شيء قد اقتضاه نظام القصيدة العربية من ناحية، ودعا إليه تصور العرب لوظيفة الشعر والشاعر من ناحية أخرى. فالقصيدة العربية مقفاة، وتذوُّق القافية والإحساس برنينها يستلزم وقفة عقب كل بيت، لذلك استحسن العرب أن يكون ذلك مرافقاً للفراغ من معنى جزئي يحسن عنده السكوت، ثم إن الشاعر لم يكن صانع كلام فحسب، ولكنه كان حكيماً يلخص الحياة في لبها وصحيحها، وتصورهم هذا لوظيفة الشعر والشاعر، جعلهم يحبون في الشعر الحكمة والمثل السائر، ويستحسنون منه ما كان أجزاء مفصلة يصلح كل جزء منها لأن يُدَوَّن ويُتَمثَّل به وحده. على أن استقلال كل بيت بنفسه يزين الشعر ولا يعيبه، لأنه يجعل القصيدة منفصلة كأنها حبات العقد، لكل حبة منها جمالها مفردة، ولكن اجتماع بعضها إلى بعض ينشيء لوناً آخر من الجمال، هو جمال التوافق والانسجام والنظام»(١).

ويقول رادًّا على أولئك الذين يتهمون الشعر العربي بأنه شعر مناسبات: «والواقع أن مشاركة الشاعر في المناسبات، هي مظهر من مظاهر ارتباطه بالجماعة وتجاوبه معها، وليست فردية الشعر الأوربي التي سادته في القرن الأخير، إلا مظهراً من مظاهر تفكك الجماعة وانحلالها، الذي يوشك أن يقضي على المجتمع الغربي، ويورده موارد الهلاك»(٢).

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣٦.

(٢) المرجع السابق ص ٢٣٣.

والواقع أن الدكتور/ محمد محمد حسين قد استطاع من خلال تفنيده لاتهامات بعض المجددين لأدبنا العربي، أن يحدد ملامح هذا الأدب وصفاته الخاصة به، مؤكداً بذلك أصالته.

وصفوة القول أن موقف الدكتور/ محمد محمد حسين من قضية الصراع بين القديم والجديد، قد تحدد على ضوء مفهوم الجديد ونوعه ومصدره، أي على أساس أنه نبات غريب، وفد علينا من بيئة غريبة، على أيدي بعض الغزاة والمستغربين الذين كانوا يحاولون فرضه على الناس والمجتمع، على ما فيه من تعارض أحياناً مع قيمنا الروحية وعاداتنا وتقاليدنا وتراثنا القومي. ومن ثم فقد تناول هذا الصراع من منظور قومي، أي أنه قضية قومية، ويتمثل هذا الموقف في تعاطفه مع المحافظين ودفاعه عنهم وعن التراث، وهجومه على الغلاة من المجددين، وتفنيده لآرائهم ومزاعمهم، مؤصِّلاً من خلال ذلك شخصيتنا القومية.

* * *

الأصالة والتغريب وصاحب الذكرى

لقد كان المرحوم الدكتور/ محمد محمد حسين ـ الذي نحيي في جامعة الإسكندرية ذكراه اليوم ـ الأديب الوفي لأمته، المعبر عن شخصيتها الأصيلة، كما كان الأديب الجريء اليقظ الذي نبه إلى أخطار التغريب، وأرسى قواعد الأصالة في الفكر والحضارة والأدب. وكان بمدرسته الأدبية التي أنشأها بأفكاره الجريئة وآرائه اليقظة، الأثر الكبير في تصحيح المفاهيم الفكرية والحضارية من خلال النتاج الأدبي وتقويمه، فكانت كتبه الكبيرة الشهيرة: «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر»، و«الإسلام والحضارة الغربية»، و«حصوننا مهددة من داخلها»، و«في أوطار الهدافين»، وغيرها معالم يقظة واضحة ترسم للأدباء المعاصرين طريق الأصالة في النظر والنتاج، بحيث يميز الأديب بين النظر الأصيل والنظر الدخيل، أو بين النتاج الذي يستلهم فيه الأديب العربي أمته ومتطلباتها وتصورها الأصيل للوجود وبين النتاج الذي يخالف فيه البعض عقيدة الأمة وأغراضها ولا يلبي تطلعاتها وقيمها وخط سيرها في الحياة.

ولقد كانت الخواطر التي أقدمها إليكم اليوم حول الأصالة والتغريب ثمرة من ثمرات هذا التمييز الواعي من صاحب الذكرى يشاد عند ذكرها بفضله... إننا في الوقت الذي نستنزل فيه الرحمة على روح الفقيد قاطن الجنان، نحيي بكل اعتزاز فكره ورأيه، وأعرض فيما يلي خطوات عاجلة عن مفهومي الأصالة والتغريب مستلهمة من آراء صاحب الذكرى.

أولاً: الأصالة في الفكر والحضارة

١ ـ الأصالة ضرورة إنسانية:

لا يستطيع إنسان في أمة من الأمم أن يمارس وجوده ونشاطه في الحياة إن لم يكن مرتكزاً إلى أصول ثابتة في الفكر والحضارة، كما إنه لا يستطيع أن يشدو في ميدانيَ الفكر والحضارة إن لم تكن أصوله في هذين الميدانين راسخة الجذور، تُثْبت وجوده وحضور أمته، وتوضح قسمات شخصية كل منهما، على أن تكون الأصول الفكرية والحضارية نابعة من الذات والوجود المستقل الذي لا تشوبه تبعية أو انقياد أو التحاق بفكر أو حضارة أمة أخرى.

اتجه الإنسان الغيور على الإسلام الذي أدرك خطر الحضارة الغربية الغازية على ديار الإسلام إلى التماس الأصالة في فكر الأمة المسلمة وحضارتها، ولعل هذا الاتجاه قد وُجِدَ عند من كان أكثر وثوقاً بفكر الأمة المسلمة وعطائها في كل عصر، فميّز بين العلوم المادية والتقَنية وبين الأفكار، فدعا إلى إيجاد تيار مؤمن يأخذ من أوربا علومها ورقيها المادي ويحفظ للأمة المسلمة مبادئها وشخصيتها.

إن ابتعاث الدور القيادي للإنسان المسلم وللأمة المسلمة لم يكن في حاجة إلى بسط وإيضاح في العهود الإسلامية الزاهرة، حيث كانت الأمة الإسلامية تمارس دورها الحق في هداية البشرية، وإنما أعوزَ الإيضاحُ والدليل حينما اعتزل الإنسان المسلم دوره زمناً بسبب من الجمود والتخلف، وخضَع للغزو الفكري الاستعماري الذي أحكم خططه الماكرة حوله، ينكرّ شخصيته، ويُذيب وجوده المستقل في حضارته وثقافته، وقد أثار غياب أصالة الإنسان المسلم حفيظة الغيورين على الأمة المسلمة، يقوْل الشاعر هاشم الرفاعي متحدثاً بلسان كل مسلم غيور:

وأصبـحَ لا يُرى في الـركْـبِ قومِـي
وقــد عاشــوا أئــمــتَــهُ سِنــينَــا
وآلَمــني وآلَمَ كلَّ حُرٍّ
سؤالُ الـدهـرِ: أينَ المُـسـلمـونَـا؟[1]

لقد كانت الحاجة الفكرية ماسةً إلى بعث الأصالة من جديد في روح الإنسان المسلم، لِكي يعود إلى استكمال دوره الذي ابتعثه الله لأجله، وقد ملأت فكـرة ابتعاث الأصالة في الإنسان المسلم نفوس المثقفين الغيارى، فرجا منها البعض أن تكون معتَصَماً للمسلمين من النوازل التي حلّت بهم كِفاءَ تركهم مُثُلَ أمتهم وطريقَها، فهذا الشاعر محمد الفَيتوري يجد حل قضية فلسطين في العودة إلى رسالة الإسلام ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام، فينـاجيه بما يعتمـل في نفسه من يقظة إلى الحقيقة، ويُرجعُ هزيمة العرب والمسلمين إلى تركهم رسالةَ الإسلام والتجهُّمِ لها:

يا سيِّـدِي عليكَ أفضلُ السّلامْ
من أمّـةٍ مُضاعَــةْ
خاسرةِ البِضاعـــةْ
تقذفُها حضارةُ الخرابِ والظلامْ
يا سيِّـدِي
مُنْذُ ردَمْنا البحرَ بالسّدودْ
وانتصبَتْ ما بينَنا وبينَك الحُدودْ
مِـتْنــا . .
وداسَتْ فوقَنا ماشِيَةُ اليهودْ[2].

(١) «ديوان هاشم الرفـاعي: الأعمال الكـاملة» جمع وتحقيق محمد حسن بريغش، الرياض، ١٤٠٠/ ١٩٨٠، ص ٣٨٣.

(٢) «ديوان» محمد الفيتوري: دار العودة، بيروت، ١٩٧٠، ص ٤٨٨.

وينـادِي الشـاعر شريف قاسم بابتعاث الأصالة في الإنسان المسلم، بابتعاث دوره الحضاري الذي عُرف به في التاريخ، وهذه إحدى قصائده التي يجلو فيها دور الأمة المسلمة ورسالة نبيها ﷺ التي لم تزل غضة ذات أدواح وأطياب:

لم تزَلْ في الـوجـودِ دَوْحتُـك الـطهـرُ ظِلالاً تَمُدُّ بالأطْيابِ
خلّدَتهـا عِنـايةُ اللهِ فامـتـدَّتْ بأعـماقِ دَوْرةِ الأحـقـابِ
لم يَمُتْ غُصنهـا النـدِيُّ ولم يُذبـلْ عُلاهـا الشموخُ في الإنجابِ
إنهّا دعـوةُ الـنّبـيِّ وآياتُ مغـاني نهارهِ الُمسـتَـطابِ(١)

وفي النشيد التالي يبسط شَكاته وأمله من البلد الحرام حيث شعّت أنوار الإسلام وازدلف الحجيج منادياً ببعث الإنسان المسلم بعزته وعقيدته وشرعته يقول فيه:

أنـا مسـلمٌ صوتي من الـبـلدِ الحـرامِ يعـودُ رِفْـدَا
وأحِسُّ أنَّ أوانَـه في الأرضِ جاءَ صداهُ وَعْـدَا
يا صَيحـةَ الإيمانِ تنهضُ بالحـيارَى ليسَ تهدَا
رُدِّي على الـشـعـبِ الـعـظيمِ عزيمـةَ الأبـرارِ بُرْدَا
وتـوقّـدِي ألَـقـاً يُذيبُ الـوهْـنَ، إنَّ الـوهْـنَ أكـدَى
يا ربِّ أنـتَ رجـاؤنـا فامـنـحْ بني الإسـلامِ سَعْـدَا(٢)

٢ ـ مكانة الإنسان المسلم ودور الأمة المسلمة:

شخصية الإنسان المسلم أثمن ما يعتزُّ به، وأسلوبه المتميز أكبر ما يُفرده بمـزاياه ويؤلِّق خصـالـه وفكره، والإنسان المسلم مدعوٌّ إلى هذا الامتيـاز

(١) «حضارة الإسلام» (الدمشقية)، السنة العشرون، ع: ١، ربيع أول ١٣٩٩هـ، ص ٩٨.

(٢) «ديوان صدى وذكرى» شريف قاسم، (خط).

والتفرّد بحكم ما كرّمه الله بهِ من رسالة، وما ناط به من مهمة كبرى، فهو من أمة الإسلام التي اختارها الله رائدةً للبشرية وهاديةً لها إلى الطريق القويم: ﴿وكذلكَ جعلناكُمْ أمةً وسطاً لِتكونُوا شُهداءَ على النّاسِ ويكون الرسولُ عليكم شَهيداً﴾(١).

* فهي الأمة الوسط التي تنزل في الموقع الفكري الموجه والعقيدي الملهم، فتشهد على الناس جميعاً، وتزِن قيمهم وتصوراتهم وتقاليدهم وشعاراتهم، وتقرر صلاحيتها أو بطلانها.

* وهي الأمة التي تتوسط أقطار الأرض جميعاً، عن طريقها تعبرُ ثمارُ الطبيعة وثمار الروح والفكر من مكان إلى آخر، وتجري هذه الحركة ماديةً كانت أم معنوية تحت قوامتها.

* ومن ثَم فهي الأمة التي أخرجها الله إلى الوجود، تحمل رسالته للعالمين كافة، لها خصائص الأمة المستخلَفة وشخصيتُها المستقلة، منهجها الجامع المتميز رشاد للبشرية ونقطة ارتكازٍ وملاذٍ لها في متاهاتها، وصمام الأمان للعالم حين يتلفّت عن منقذ له من الدمار والانحسار(٢).

﴿كنتُمْ خيرَ أمةٍ أُخرِجتْ للناسِ تأمرونَ بالمعروفِ وتنهَوْنَ عن المنكرِ وتُؤمنونَ باللهِ﴾(٣).

لقد رفع الله الإنسان المسلم إلى هذه المكانة، فسمَتْ أمةُ الإسلام بآفاقها زمناً. أمةٌ ذات حضارة رائدة وعقيدة هادية، لا تزال نفس كل مؤمن معلقة بآفاقها تردِّد مع الشاعر عدنان نحوي:

---

(١) سورة البقرة: ١٤٣.

(٢) انظر «في ظلال القرآن» سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الشرعية السادسة بيروت/ القاهرة ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨ جـ ٢ ص ١٣٠ ـ ١٣١.

(٣) آل عمران: ١١٠.

هُنا النبوةُ... ! مغناكِ الذي عبَقَتْ
فيه النبوةُ أغنَى كلَّ مُنسرَبِ
مواكِبٌ رُفِعَتْ في كلِّ معركةٍ
راياتها خافقاتِ العُودِ والعذَبِ
يصوغُها الحَقُّ إيماناً على سُنَنٍ
وآيةٍ من كتاب الله لم يُرِبِ
جرَى مع الدم في أوصالهَا فِطَراً
نقيةً فتلقَّتْ صفوةَ الكُتبِ
نبعاً يُروِّي من الأيام مجُدِبهَا
ويزرعُ الخيرَ في وادٍ وفي رحَبِ[1]

كما تردد مع الشاعر عمر أبي ريشة آفاق رسالة الإسلام الحضارية التي طلعت على الدنيا بضياء الإيمان والمعرفة في هذه النجوى لنبي الرسالة:

يا نجيَّ الخلودِ تلكَ سراياكَ على كلِّ ربوةٍ غَنّاءِ
حمَلْت صَبوةَ الشآم وفَضَّتْهـا أريجاً على فم الزّوْراءِ
وشَجَتْها غِرناطةٌ فشفَتْ منها فؤادَ الصبيةِ الحسناءِ
فإذا الأرضُ في عرائِسكَ الأبكارِ مغنَى سناً ومجلى سَناءِ[2]

ويقول شاعر الإسلام محمد إقبال مهيباً بالإنسان العربي أن يعود لاستكمال دوره الكبير الذي عرف به: «أنا أعلم جيداً يا إخوانيَ العرب! أنَّ النارَ التي شعَلتِ الزمانَ وبهرتِ التاريخ، لم تزلْ ولا تزالُ تشتعلُ في وجودِكم، صدِّقوا أيها السادةُ! أنّه لا دواءَ لكم في جنيفَ ولا في لندنَ... إن الأممَ لا تذوق طعم الحرية والاستقلال حتى تُرَبَّى فيها الشخصيةِ والاعتدادَ بالنفس»[3] .

(١) «موكب النور» عدنان نحوي، بيروت ١٤٠٠/ ١٩٨٠ ص ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧.
(٢) «ديوان» عمر أبو ريشة، دار العودة، بيروت، قصيدة «محمد» ص ٤٩٥.
(٣) «روائع إقبال»: ١٣٩.

ثانياً: التغــريــب

ثم يأتي حديثنـا عن التغـريب، وقد تضمن مقتبسات وآراء لصاحب الذكرى ومن أبرزها ما نعرض فيه لأبعاد حركة التغريب الأوربية المعاصرة.

١ ـ كانت القـوى الاستعمارية قد احتلت الأرض الإسلامية وسلبت سيادتها وحريتها وثرواتها، فإن أشد ما عانته البلاد الإسلامية من حملاتها هذه هو ما قامت به القوى الاستعمارية من إضعاف شأن العالم الإسلامي، ومحاولة تذويب شخصيته في الدائرة الثقافية الأوربية، فجندت الخبراء لتنفيذ خططها كلاً في فنه واختصاصه، وأخذ هذا الجيش من العلماء والخبراء بدعوى نشر العلم والحضارة، يخطط لإخضاع الشعوب الإسلامية، وحملها على السير في ركاب أوربا سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، يقول الدكتور محمد محمد حسين:

«لم ينتهِ القرن التاسع عشر إلا وقد عظُم شأن الاستعمار الغربي... وأصبح العالم الإسلامي في قبضته فيما عدا تركيا وإيران، وهاتان وإن كانتا مستقلتين، فلم تكن إحداهما مطلقةَ اليد تتصرف كيف تشاء، وبذلك دخلت صِلات الإسلام والمسلمين بالحضارة الغربية في طور جديد، أصبح فيه تأثير هذه الحضارة الغازية أكثرَ قوة وفعالية، وفرضت الدول الغازية لغاتها وثقافتها... تيسيراً على الغربي المستعمر في التعامل من ناحية، وتمهيداً لمحو طابـع المستعمـرات وامتصاصها من ناحية أخرى... وأصبح التعليم في داخل هذه البلاد يجري على تخطيط غربي رسمه الاستعمار وأشرف على تنفيذه بنفسه أو بأيدي صنائعه، وبذلك ظهر في معجم السياسة والحضارة ما يسميه ساسة الغربيين ومفكروهم Westernization أو ما يمكن أن نسميه (بالتغريب) أي: طبع المستعمرات الآسيوية والإفريقية بطابع الحضارة الغربية»(١).

(١) «الإسلام والحضارة الغربية»، دكتور محمد محمد حسين، بيروت ١٣٨٨ ـ ١٩٦٩ =

٢ ـ وقف المسلمون في ديار العرب والإسلام من المستعمر موقف النفور والمجالدة والصدام حين تواتي الفرصة، لما يفصل بين المسلمين والأوربيين من فواصل عقدية واجتماعية تمثلت في اختلاف القيم بينهما اختلافاً شديداً، جعلت رجال المستعمر يفكرون في الوسائل التي يستطيعون بها إزالة هذه الحواجز، وعبور الهوة الفاصلة، فحاولوا التقرب إلى أهل البلاد المسلمين بكل ما يستطيعون من وسائل، فاختاروا طريق التقريب الثقافي، بتربية جيل من المسلمين يحمل قيمهم، وبتطويع الإسلام ليتفق مع الحضارة الغربية، وكانت هذه خطة «كرومر»، يقول صاحب الذكرى:

«لاحظ كرومر وجود هذا الخلاف الشديد بين المسلمين وبين المستعمر الغربي . . . ودعا من أجل ذلك إلى العمل بمختلف الوسائل على بناء قنطرة فوق هذه الهوة، وقد اتخذت هذه الوسائل طريقين: أحدهما هو تربية جيل من المصريين العصريين الذين يُنَشَّؤون تنشئة خاصة تقربهم من الأوربيين . . . في طرائق السلوك والتفكير . . . أما الوسيلة الأخرى التي اتخذها الاستعمار . . وهي تتلخص في تطوير الإسلام نفسه، وإعادة تفسيره، بحيث يبدو متفقاً مع الحضارة الغربية أو قريباً منها»[1].

وهذا الشاعر الجزائري محمد بلقاسم خمار الذي ذاق ويلات الاستعمار الفرنسي، يرد بثقة على من ينفي الغزو الفكري عن الدول المستعمِرة، هذه فرنسا كانت ممثِّلةً لها، حاملة لعبئها في الجزائر، فماذا كان من شأنها مع شعب الجزائر؟

قالتْ فرنسا: «أتيْناكُمْ نعلمُكُمْ
فنَّ الحضارةِ، إذْ أنتمْ لها عدمُ

= ص ٥٥ ـ ٥٦.

(١) المرجع نفسه: ٦١ ـ ٦٥.

حضـارةُ الـغـابِ حقًّـا نحـنُ نجـهـلُهـا
والـفـضـلُ يرجِـعُ في تشريعِـهـا لهمُ
سيذكـرُ الـنـاسُ ما دامُـوا حضـارَتـكُـمْ
في صُورة الـوحش إذْ يطغَـى به الـنهَـمُ
أحـرقـتُـمُ الـشـعـبَ وانهدَّتْ معـالمُـه
وكـادَ لولا رقـيـبُ الحـقِّ ينـعـدمُ
فلا حياةٌ ولا نورٌ ولا أمـلٌ
والجـهـلُ والـفـقـرُ أنـيابٌ لكُـمْ وفَـمُ[1]

واستعصاماً بالأصالة، ومنجاةً من أحابيل التغريب، حذّر القرآن من مُوادّة الكفرة واتخاذهم بطانة ورواداً: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تَتَّخِذوا بِطانَةً مِن دُونِكمْ لا يألونَكُمْ خَبالاً ودُّوا ما عَنِتُّم قد بدَتِ البغضاءُ من أفواهِهِمْ وما تخفي صدورُهُمْ أكبرُ قد بيَّنَّا لكمُ الآياتِ إنْ كنتُمْ تعقِلونَ﴾[2].

وقد حلل هذه الظاهرة الخطيرة التي تنذر الأمة المسلمة بدمار شخصيتها وزوال طابعها المتميِّز ما لم تستمسك بأصالتها وتميزها الدكتور عبد الوهاب عزّام، في حديثه إلى مؤتمر الطلبة الشرقيين، داعياً إلى طريق الأصالة الذي ينقذ الأمة من حيرتها، وينهضها من كبوتها، إنها حين تجد ذاتها، وتسير على طريق الأصالة والكرامة، تعرف ماذا تأخذ من الخارج وماذا تدع؟ وتعرف ما يصلح لها، وما لا ينسجم مع شخصيتها:

«إذا أحسنَّا التفكير عرفنا فرقَ ما بين الصناعات والأخلاق والعادات، ولم يلتبِسْ علينا ما نأخذُ من أوربا من العلوم الطبيعية ونتائِجها، وما نتجنّبُ من أخلاقها وآدابها، فإنه لا فرقَ بين الحساب والهندسة والكيمياء في الشرق

(١) «ديوان ظلال وأصداء»: ٥١ ـ ٥٢.
(٢) آل عمران: ١١٨.

والغرب، ولكنْ شتانَ ما بينهما في العقائدِ والخُلُق وسُنن الاجتماع وما يتصلُ بذلك، فإن لكل أمة من أخلاقها وآدابها ثوباً حاكَتْه القرونُ، وعمِلتْ فيه الأجيال، فليس يصلُحُ لغيرِها، ولا يصلُحُ لها غيرُه»[1].

عرضتُ لهذه الخواطر لمسات عاجلة حول الأصالة والتغريب في هذه الذكرى الكريمة، مستلهمة من آراء صاحب الذكرى رائد الأصالة الأدبية الدكتور/ محمد محمد حسين، خالصاً في ذكراه حبنا وعرفاننا وإكبارنا، ولكلية الآداب بجامعة الإسكندرية شكري وتقديري لإحيائها ذكر أديبنا الكبير الخالد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

(١) ملحق السياسة الأدبي، ١٤ من جمادى الثانية ١٣٥١، ١٤ من أكتوبر ١٩٣٢، (عدد خاص بمؤتمر الطلبة الشرقيين).

الدكتور محمد محمد حسين والدفاع عن
قضايا الإســـــلام

والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد: ـ
فقد أحسنت جامعة الإسكندرية عملاً يوم عزمت على تكريم الأستاذ الدكتور/ محمد محمد حسين بمناسبة مرور عام واحد على وفاته، وكان سبيلها في هذا التكريم إقامة ندوة عامة تتناول آثاره وأعماله التي وقف حياته عليها.

لقد أحسنت عملاً بذلك، لأن هذا التكريم ضرب من ضروب الوفاء لأستاذ جامعي وقف حياته على خدمة العلم ونشره وإذاعته في الناس. وهو من جهة أخرى ضربٌ من ضروب التوجه الكريم إلى الحقيقة التي آمن بها المرحوم، وأبلى بلاء حسناً في سبيل نصرتها وإظهارها للناس ناصعة. وعسى أن يكون هذا التكريم سنة متبعة تجري عليها جامعاتنا العربية كافة عند فقد مفكر أو عالم من مفكري هذه الأمة وعلمائها.

والواقع أن الدكتور/ محمد محمد حسين أهل لهذا التكريم مستحق له، لأنه كان ـ إلى جانب صفته الأكاديمية ـ قائداً من قادة الثقافة في العالم الإسلامي في زماننا، واستطاع بقلمه الحر الوثاب، وبإيمانه المتدفق الغامر، أن يأخذ مكانه المرموق في مسيرة الثقافة الإسلامية الحاضرة، وأن يترك وراءه أفكاره المتجسدة في آلاف قرائه.

ولقد نظرت في آثار المرحوم الإسلامية نظرة تدبر وإمعان، واستقر قراري

على أن يكون عنوان حديثي «محمد محمد حسين والدفاع عن قضايا الإسلام».

والحق أن الدفاع عن قضايا الإسلام ذو صور وأشكال متباينة مختلفة، منها ما هو مادي، ومنها ما هو معنوي، ولقد اتخذ المرحوم سبيله في الدفاع عن قضايا دينه قائماً على محورين: -

المحور الأول: الإيمان بالحقيقة الإسلامية الكاملة، القادرة على حل مشكلات البشرية في كل زمان ومكان، ورد التهم الموجهة إليها.

المحور الثاني: كشف الأقنعة والأستار عن الدسائس الاستعمارية وأساليبها العديدة، وهذه الدسائس تظهر في أشكال مختلفة، منها: الدمى البشرية التي ارتضت أن تكون أبواقاً ناطقة بأهداف المستعمر وغاياته، ومنها الأحزاب السياسية القائمة على أسس فكرية تتصادم تصادماً تامًّا مع مقتضيات الحضارة الإسلامية، ومنها الحركات الإصلاحية التي تتناول الأوضاع الاجتماعية أو الدينية أو اللغوية، وكل ما لا يتم المجتمع إلا به.

وكل هذه الدسائس الاستعمارية إنما ترمي إلى الإجهاز على الوحدة الفكرية بين المسلمين، وخلق أطر فكرية جديدة تمتد امتداد كل إقليم من أقاليم بلاد المسلمين، حتى يأتي زمان ينسى فيه المسلمون أن ديار الإسلام وطن واحد هو الوطن الإسلامي، وأن الشخصية الفكرية الإسلامية شخصية واحدة مهما نأت الديار وتباعدت الأوطان.

وأما قضايا الإسلام فيراد بها قضايا المجتمع الإسلامي كلها، ذلك لأن الإسلام - كما أدركه الدكتور/ محمد محمد حسين، وكما هو في واقعه وحقيقته منذ أن نزل على قلب الرسول الكريم بلسان عربي مبين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - ليس مجموعة من الشعائر التعبدية، والطقوس التي يمكن حصرها في دائرة المسجد، وإنما هو منهج شامل كامل يفسر كل قضية

تقع في المجتمع، سواء أكانت صغيرة أم كبيرة.

والـذي يقرأ ما كتبه الدكتور/ محمد محمد حسين يحسُّ أن الدين هو الميزان الـذي يزن به القضايا كلها، سواء أكانت قضايا لغوية أم أدبية أم نحوية أم سياسية أم إصلاحية، والفكرة الواحدة من هذه القضايا لا توصف بالصحة أو الفساد إلا بهذا المقدار الذي يقرِّبها من الدين أو يبعدها عنه.

وقد صرح الدكتور/ محمد محمد حسين بهذا المفهوم الشامل للدين في قوله: «الإسلام لم يكن مجموعة من الطقوس الدينية وحسب، كما هو الشأن في غيره من الأديان، ولكنه حضارة كاملة يحملها الإسلام حيثما ذهب، لها لغتها التي لا يصح التعبد بغيرها، ولها قيمها وقوانينها التي تمتد وتتغلغل لتشمل سائر احتياجات الأفراد والجماعات في سلوكهم وفي معاملاتهم وفي نشاطهم الفكري والعاطفي على السواء»[1].

وقـد يعجب من هذا النفر الذين يضيقون ذرعاً كلَّما أدخل الدين في ميادين لم يألفـوا أن يدخـل فيها، لاستبداد المفهوم الكهنوتي للدين بهم، ويظنون أن الدين مقحم في هذه الميادين إقحاماً، ويقولون: «كلما حدَّثناكم في شيء أقحمتم فيه الإسـلام، وقلتم: القرآن القرآن، لا حجة لكم إلا هذا، ولا تعِلَّة لكم سواه! ونحن نقول: نعم. القرآن والإسلام في تقديركم شيء هين يسير، وهو في تقديرنا كبير خطير، ونحن لا نبالي شيئاً مما تزينونه وتزخرفونه إذا أبعد عن القرآن والإسلام، فإن كان القرآن والإسلام عندكم لوناً من الألوان، وواحداً من اعتبارات كثار، فهو عندنا كل شيء به نحيا، وعليه نموت»[2].

«ولا يصح من هذه الزاوية الحضارية للدين أن يطلق على علماء الإسلام

---

(١) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٥٧، وانظر «الاتجاهات الوطنية»: ٢/ ٢٧٢.

(٢) «حصوننا مهددة»: ٢٧١.

رجال الدين، هذا التعبير قد شاع استخدامه على ألسنة الناس شيوعاً خاطئاً»[١].

فالإسلام المنهج الشامل الكامل جعل كل قضية تناولها الدكتور/ محمد محمد حسين دفاعاً عن الإسلام، لأن هذه القضايا وإن اختلفت صورها وأشكالها ترتد في النهاية إلى الدين، وهذا ما قرره عند حديثه عن الدعوات الهدامة، قال: «ويمكن رد كل ما ظهر من دعوات هدامة إلى واحد من أقسام ثلاثة، وهي ما يقصد به هدم الدين، وما يقصد به هدم الخلق، وما يقصد به هدم اللغة، على أن هذه الأقسام الثلاثة ترتد جميعاً إلى القسم الأول في آخر الأمر، لأن هدم الخلق ليس إلا هدماً للدين في جانبه الأخلاقي، ولأن هدم اللغة ليس إلا هدماً للإسلام في لغته التي يتعبد بها المسلمون»[٢].

واستكمالاً لهذا المفهوم الإسلامي الشامل وتأكيداً له، لم يتردد المرحوم في أن يقرر أن الاتجاهات الفكرية القاضية بحصر الدين في المسجد وتضييق دائرة نفوذه هي اتجاهات استعمارية أو تخدم أهداف الاستعمار[٣].

ولما كانت قضايا الإسلام بهذه السعة، وبهذا الشمول، فإنه من العسير علي حقًّا أن ألم في هذه المناسبة بالقضايا الإسلامية التي عالجها الدكتور/ محمد محمد حسين كافة، وحسبي أن أقف عند قضية واحدة من هذه القضايا، ألح عليها، ورأى أنها من أخطر القضايا، وهي قضية تطوير الإسلام بحيث يوائم الفكر الغربي الحديث، أو مسألة التوفيق بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي، على أن هذه القضية ذاتها قضية ممتدة متشعبة لامتداد ميادينها وتشعبها، فقد تسلل التطوير إلى مناح كثيرة من مناحي

---

(١) انظر «الاتجاهات الوطنية»: ١/ ٢٠٠، ٢٨٠، و«حصوننا مهددة»: ٢٦٠، و«الروحية»: ٧٧.

(٢) «الاتجاهات الوطنية»: ٢/ ٢٧٦.

(٣) انظر «حصوننا مهددة»: ٢٨، ٣٥، ٢٧٨.

المجتمع الإسلامي، من مثل «الوطنية الإقليمية، والعناية بالتاريخ القديم السابق على الإسلام، الدعوة إلى الحرية وإلى الحياة النيابية وإلى وضع دستور يحدد حقوق الحاكم والمحكوم، وواجبات كل منهما، الدعوة إلى إعادة النظر في وضع المرأة من المجتمع: الحجاب، الحد من تعدد الزوجات، الحد من حرية الطلاق»(١).

وقد ظهر لكل دعوة من هذه الدعوات علم أو أكثر من أعلام الفكر، ترتبط الدعوة به، ويشيع ذكره بين الناس، فشؤون المرأة ارتبطت بقاسم أمين في كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»(٢)، والدعوة إلى الحرية وفصل الدين عن الدولة ارتبطت بعبد الرحمن الكواكبي في كتابيه «طبائع الاستبداد»، و«أم القرى»، وبعلي عبد الرازق في كتابه «الإسلام وأصول الحكم»(٣)، والدعوة إلى العناية بالإقليمية والعناية بالتاريخ الفرعوني وإلى الحرية أيضاً ارتبطت بأحمد لطفي السيد(٤)، والدعوة إلى تطوير الدستور والقوانين بصورة عامة ارتبطت بالأحزاب السياسية وبعبد الرزاق السنهوري(٥)، ولكل واحد من هؤلاء أشياع وأتباع.

وسأمضي الآن في تتبع فكرة التطوير وبيان مخاطرها وأضرارها وارتباطها بالدسائس الاستعمارية، وخدمة أهداف المستعمر، مع ذكر نموذجين فقط من نماذج المسائل التي دخلها التطوير، وبيان رأي الدكتور/ محمد محمد

(١) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٩٨.
(٢) انظر «الاتجاهات الوطنية»: ١/ ٢٧٣ ـ ٢٩١، و«الإسلام والحضارة الغربية»: ٩٨، ٩٩.
(٣) انظر حديثه عن كتابي الكواكبي في «الاتجاهات الوطنية»١/ ٢٤٦ ـ ٢٦٠، ٢٦٠ ـ ٢٦٤، وحديثه عن الإسلام وأصول الحكم «الاتجاهات» أيضاً: ٢/ ٨٠ ـ ٩١.
(٤) تحدث عن لطفي السيد في مواضع كثيرة جدًّا مما كتب، انظر على سبيل المثال «حصوننا مهددة»: ٢٣٧، و«الإسلام والحضارة الغربية»: ٩٨.
(٥) انظر «حصوننا مهددة»: ١٧٧ ـ ١٨٩.

حسين فيها، حتى يعرف القارىء كيف تعالج القضايا من زاوية إسلامية صرفة، ثم أعقب هذا بذكر البدائل الفكرية للتطوير عند الدكتور محمد محمد حسين.

نشأت فكرة التوفيق بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي، أو تطوير الإسلام كما يحب الدكتور/ محمد محمد حسين أن يسمي هذه الفكرة نتيجة الإحساس بالحاجة إلى إصلاح المجتمع الإسلامي والنهوض به، وكانت هذه الفكرة صدى للاتصال بين الحضارتين الإسلامية والغربية، ولكنه الصدى الذي يتلقاه المغلوب من الغالب، فيحقق الضعف في أحدهما، والقوة في الآخر[1].

وتعود بذور هذا التطوير إلى بعض الإصلاحات التي قام بها السلطان سليم الثالث العثماني، والسلطان محمود الثاني العثماني، وأسرة القاجار في إيران، وأحمد باشا باي في تونس في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وأوائل القرن التاسع عشر الميلادي، و «وكان اتصال الإسلام بالحضارة الغربية في هذه المرحلة محصوراً في الجانب المادي الآلي منها، أو كذلك أريد له أن يكون، ولم يكن يستهدف أصحابه إلا وصل المسلمين بأسباب القوة لكي يكونوا أنداداً لأعدائهم»[2].

وامتداداً لهذا الاتصال ما نلقاه في كتب رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي من أفكار غربية حديثة تشهدها البيئة الإسلامية لأول مرة، كالحديث عن الحرية، والوطنية بالمفهوم الأوربي الحديث، والحياة النيابية، وقضايا المرأة كعمل المرأة والاختلاط، وتعدد الزوجات، والمطالبة بوضع مدونة قانونية على نمط المدونات الأوربية الحديثة[3].

---

(١) انظر «الإسلام والحضارة الغربية»: ١٢.

(٢) «الإسلام والحضارة الغربية»: ١٤.

(٣) «انظر الإسلام والحضارة الغربية»: ١٢/ ١٣.

ولأول مرة نلحظ رفاعة الطهطاوي يقر فكرة التطوير أو التوفيق بين الفكر الإسلامي والفكر الغربي في قوله: «ومن زاول علم أصول الفقه، وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول أهالي باقي الأمم المتمدنة إليها، وجعلوها أساساً لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم، قل أن تخرج عن تلك الأصول التي بُنيت عليها الفروع الفقهية التي عليها مدار العاملات»[1].

غير أن هذه البذور التي بذرها رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي سارت في مسار متزن مقتصد، لا تخرج عن السمات العامة التي اتسمت بها المرحلة الأولى من مراحل الاتصال بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وهي سمات تتصف بالبراءة وحسن القصد والبعد عن الخبيث.

وقد لخص الدكتور/ محمد محمد حسين هذه السمات في قوله: هذه هي المرحلة الأولى من مراحل اتصال الإسلام بالحضارة الغربية، بدأت في أول أمرها بعيدة عن أن تمس الإسلام، تطلب القوة في تنظيم الجيوش وتسليحها، وتنظيم مصادرة الثروة وتنميتها، ثم انتهت إلى الاشتباك مع الإسلام في قيم السلوك الفردي والجماعي. وقد كانت دوافع الحكام والمفكرين على السواء في هذه المرحلة سواء أصابوا الوسائل أم أخطؤوها هي طلب القوة للمجتمع الإسلامي، وابتغاء الوسيلة إلى أسباب النهضة التي تخلص المجتمع من ضعفه وجهله وفقره، وكانت المبادىء الإسلامية في هذا التطور هي الميزان الذي يوزن به ما يراد استحداثه، فيقبل أو يرفض، وعلى أساسها وحدها يدور الحجاج، وبها وحدها يؤيد كل من الطرفين المتناظرين حجته. فالطهطاوي وخيرالدين يبدأ كل منهما كلامه بالنص القرآني وبالحديث وبرأي الصحابة والفقهاء، ونقطة البدء في تفكيرهما هي التماس الوسائل لقوة

(١) انظر «الإسلام والحضارة الغربية»: ١٨ ـ ٥٣.

المجتمع الإسلامي حتى يصبح قادراً على الصمود أمام المنافسة الغربية[1]. وترجع قيمة هذه المرحلة إلى أنها جلبت البذور الغربية وألقتها في التربة الإسلامية[2].

ثم جاءت المرحلة الثانية من مراحل التطوير الذي هو صدى للاتصال بين الحضارتين الإسلامية والغربية، وكانت هذه المرحلة أشد خطراً من المرحلة الأولى، وأشد إيغالاً في التطوير ودخل فيها عامل جديد لم يكن في المرحلة الأولى، وهو الاستعمار بعد أن سقطت معظم البلاد الإسلامية تحت أقدامه ذليلة، وأخذ يفرض لغته وثقافته وطرائق تفكيره في شتى مناحي الحياة، وظهر ما يعرف بالتغريب.

وقد كشف الدكتور/ محمد محمد حسين الهدف من برامج التغريب فقال: «وبرامج التغريب تحاول أن تخدم هدفاً مزدوجاً، فهي تحرس مصالح الاستعمار بتقريب الهوة التي تفصل بينه وبين المسلمين نتيجة لاختلاف القيم، ونتيجة للمرارة التي يحسها المسلم إزاء المحتلين لبلاده... وهي في الوقت نفسه تضعف الرابطة الدينية التي تجمع المسلمين، وتفرق جماعتهم التي كانت تلتقي على وحدة القيم الفكرية والثقافية، أو بتعبير أدق وحدة القيم الحضارية»[3].

وقد سلك التغريب لتحقيق هذه الأهداف وسيلتين «أحدهما هو تربية جيل من المصريين العصريين الذين ينشّؤون تنشئة خاصة تقربهم من الأوربيين ومن الإنجليز على وجه الخصوص... أما الوسيلة الأخرى التي اتخذها الاستعمار لإيجاد هذا التفاهم المنقود وعمل على تنفيذها، فهي

(١) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٥٠.
(٢) «الإسلام والحضارة الغربية»: ١٨ - ١٩.
(٣) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٦٢.

تتلخص في تطوير الإسلام نفسه، وإعادة تفسيره بحيث يبدو متفقاً مع الحضارة الغربية أو قريباً منها غير متعارض معها على الأقل بدل أن يبدو عدوًّا لها أو معارضاً لقيمها وأساليبها[1]».

فأما الوسيلة الأولى فظهرت في ميادين كثيرة: منها التعليم، والمدارس، والبرامج التعليمية، والصحف، والآداب الاجتماعية، والفنون، والسلوك الفردي والجماعي، ومؤسسة اليونسكو، والمؤتمرات التي يلتقي فيها المسلمون والمستشرقون بغية توجيه الفكر الإسلامي وجهات معينة[2].

وأما الوسيلة الثانية فاتخذت صورة فتاوى جريئة، تلوي أعناق النصوص الإسلامية من قرآن وحديث لمسايرة الفكر الغربي، واتخذت صورة كتب، ومقالات، ومشاريع، وبرامج، ومؤتمرات، والتبست الوسيلة الثانية بالوسيلة الأولى التباساً شديداً، وتداخلتا تداخلاً ملحوظاً[3].

وبهذا دخل التطوير مدخلاً خطيراً، وفقد هدفه الأول البريء الرامي إلى إصلاح المسلمين والنهوض بهم، وصار آلة من الآلات التي يستخدمها الاستعمار لهدم الشخصية الإسلامية ومحوها محواً تامًّا، ولإيجاد علائق ثابتة مستقرة بين الغرب والمسلمين، صار صدى للأفكار الغربية التي تصف الإسلام بأنه دين متخلف جامد لا يساير العصر[4].

وقد تزعم هذا الاتجاه الإمام محمد عبده وتلاميذه من بعده، وصار تطوير «دعوة عامة تهاجم التقليد بإعادة النظر في التشريع الإسلامي كله دون قيد،

---

(١) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٦٤.

(٢) انظر «الإسلام والحضارة الغربية»: ١٠٤، و«حصوننا مهددة»: ٢٠، وما بعدها.

(٣) انظر «الاتجاهات الوطنية»: ١ / ٣١٦ ـ ٣٢٠، و«حصوننا مهددة» ٢٠ وما بعدها، و«الإسلام والحضارة الغربية»: ٧٠.

(٤) انظر «الاتجاهات الوطنية»: ٢ / ٢٩٢، و«حصوننا مهددة» ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٩.

فانفتح الباب على مصراعيه للقادرين وغير القادرين، ولأصحاب الورع ولأصحاب الأهواء»[1].

وقد وقف الدكتور/ محمد محمد حسين إزاء هذه الدعوة موقفاً رافضاً عنيفاً لا يهادنها ويعتبرها شر الحركات الإصلاحية، لأنها ترمي إلى «إلغاء وظيفة الدين، لأنه بدلاً من أن يقوِّم عوج الحياة بنصوص الشريعة، يحتال على نصوص الشريعة حتى يسوغ بها عوج الحياة المعاصرة»[2]. ولأن التطور شيء والاجتهاد شيء آخر، لأن «نقطة البدء في اجتهاد المجتهد هي هذا السؤال: هل يصح هذا الأمر شرعاً أو لا يصح؟ أو ما هو حكم الإسلام في هذا الأمر؟ ونقطة البدء في تطوير المطور: ما هي النصوص الشرعية التي تثبت صحة هذا الأمر؟ أو ما هي النصوص الشرعية التي تثبت حرمة هذا الأمر؟»[3].

والتطوير خطر على المجتمع الإسلامي لأنه يفضي إلى الالتباس بين القيم الإسلامية والقيم الغربية، بحيث لا تدري الأجيال اللاحقة الزائف من بين الأفكار والأصيل، وبذلك ننتهي إلى تأصيل الزائف عن طريق تسويغه، وننتهي إلى «إفساد للإسلام يشوش قيمه ومفاهيمه الأصيلة بإدخال الزيف على الصحيح، ويثبت الغريب ويؤكده... فإذا سوَّغنا ذلك الغريب الدخيل خيره وشره تسويغاً إسلاميًّا في حال الضعف والعجز فقد أصلناه من ناحية، وأقحمنا على الإسلام ما يفسد بنيته من ناحية أخرى[4]».

وللتطوير خطر آخر فيما يرى المرحوم يتمثل في الانتهاء «بالمسلمين إلى

---

(١) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٧٠.
(٢) «حصوننا مهددة»: ٢٠ ـ ٢١، و«انظر الاتجاهات الوطنية»: ٢/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦، و«الإسلام والحضارة الغربية»: ٧٢، و«حصوننا مهددة»: ١٨٠.
(٣) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٧٢ ـ ٧٣.
(٤) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٧٣.

الفرقة التي لا اجتماع بعدها، لأن كل جماعة منهم سوف تذهب في التطوير مذهباً يخالف غيرها من الجماعات، ومع توالي الأيام نجد إسلاماً تركيًّا، وإسلاماً هنديًّا، وإسلاماً إيرانيًّا، وإسلاماً عربيًّا، بل ربما وجدنا في داخل هذا الإسلام العربي ألواناً إقليمية تختلف باختلاف البلاد[1]»

وهو يرى أن نقل الفكر الغربي بصوره شاملة كلية أخف ضرراً في التطوير، وأهون شأناً، قال: «لا شك أن تفاعل الشريعة الإسلامية السماوية مع شرائع الغرب الوضعية هو شر مما كان حادثاً من استعارة القانون الغربي كله أو بعضه، لأن من الممكن التخلص من الدخيل في هذه الحالة، أما في حالة الاندماج والتفاعل، فإدراك الحدود بينهما صعب، وتخليص الشريعة الإسلامية مما دخلها من أسباب الزيغ والانحراف يكاد يتعذر بعد أن تتغلغل الروح الغربية في كيانها، ويصبح الناتج من تفاعلهما شيئاً جديداً معقد التركيب، تختلف خصائصه وصفاته عن كل من العنصرين المكونين له. ثم إن الناس في الحالة الأولى يدركون إدراكاً واضحاً أن القانون الذي يحكمهم قانون دخيل، أما في الحالة الثانية فقد يتوهمون أن القانون الذي يحتكمون إليه قانون إسلامي»[2].

والتطوير مرفوض لأنه سبيل من سبيلين سلكهما المستغمر لإيجاد علائق مستقرة بينه وبين المسلمين، ولإضعاف الرابطة الدينية بينهم، وتفتيت وحدتهم كما تقدم[3]، ولذلك جعل الدكتور/ محمد محمد حسين دأبه ربط حركة التطوير بالتعاون مع الاستعمار والسير في ركابه، يقول الدكتور/ محمد محمد حسين: «وقد ظل أصدقاء محمد عبده وأنصار دعوته يكثرون» بما يلقَوْن

---

(١) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٧٤، ١٠٣، وانظر «الاتجاهات الوطنية»: ٢/ ٢٩٢.

(٢) «حصوننا مهددة»: ١٨١.

(٣) انظر ما مضى: ص ٧.

من تشجيع الإنجليز الذين كانوا يمكِّنون لهم في إدارات الحكومة وفي مناصب الدولة الكبرى، وبما يجدون من تأييد الثقافة الحديثة التي تشد أزرها الصحف والمجلات والمدارس، وظل خصومه ومعارضو دعوته يقلّون ويضعفون بمناوأة الإنجليز لهم، ومحاربة أجهزة التعليم والثقافة لآرائهم، حتى أصبح اسم محمد عبده مقترناً في أكثر الأذهان بالإصلاح المستنير، وأصبح اسم معارضيه مقترناً بالتزمت وضيق الأفق المفسد لسماحة الإسلام»[1].

وقد ألح الدكتور/ محمد محمد حسين على شخصية الشيخ محمد عبده، وأماط اللثام عنها، فأظهرها صديقة للإنجليز بعامة ولكرومر بخاصة[2]، وكشف عن اندماجها في سلك الماسونية[3]، ويبدو أن صلة الاستعمار بحركة التطوير قد جعلت الدكتور/ محمد محمد حسين يلح على كثير من الشخصيات التي ظهرت في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، ويظهرها على حقيقتها عارية غير مستورة، ويكشف الأدوار التي أدتها في خدمة الاستعمار وتحقيق أهدافه مثل جمال الدين الأفغاني، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد عبده، وقاسم أمين، وسعد زغلول، وأحمد لطفي، وطه حسين، وعبد الرزاق السنهوري، ومصطفى فهمي، والنحّاس، وعدد آخر كثُر ظهورهم في هذه الفترة في مختلف الميادين، لا سبيل إلى تتبعهم وبيان رأي المرحوم فيهم وفي أفكارهم في هذه العجالة، وحسبي أن أقول: إنه طالب بإعادة النظر «في تقويم الرجال، لأن كثيراً ممن نعتبرهم دِعائم النهضة الحديثة، لم يصبحوا كذلك في أوهام الناس إلا لسبب الدعايات المغرضة التي أرادت أن تضعِهم

(١) «الاتجاهات الوطنية»: ١/ ٣٣٢.

(٢) انظر «الاتجاهات الوطنية»: ١/ ١٧٤، ١/ـ٢٣٥، ٢/ ٢٩٣، وانظر «الإسلام والحضارة الغربية»: ٩٧ ـ ٩٩.

(٣) «الاتجاهات الوطنية»: ١/ ٣٠٨.

في هذه المنزلة، ولأن كثيراً من الآراء المنحرفة التي لم تكن تستطيع أن تجد طريقها إلى الفكر الإسلامي وإلى مجتمعاته، قد أصبح قبولها ممكناً بنسبتها إلى هذه الزعامات، وإلى هؤلاء الأئمة الذين لا يتطرق إلى الناس شك في إخلاصهم وعلمهم»[1].

ورأيه في هؤلاء الرجال بعامة أنهم بنوا مجداً لهم، وذكراً سائراً في الناس «ليس من صنعهم، ولا هو من صنع الشعوب التي عاشوا فيها، ولكنه من صنيع القوى التي استخدمتهم أو التي تريد أن تستغلهم، وسواء أكانت هذه القوى هي الاستعمار، أو هي الصهيونية العالمية بمختلف وسائلها وأجهزتها[2]» والاستعمار حين أبرزهم وأظهرهم للناس أصناماً معبودة لم يكن غرضه لخدمتهم، ولكن الغرض كان ولا يزال هو خدمة المذاهب والآراء التي نادوا بها، ووافقت أهداف المستعمر ومصالحه[3].

وهو حين يكشف عن هؤلاء الرجال الأقنعة لا يهدف إلى الانتقاص من أقدارهم، ولا إلى إهانتهم، ولكنه لا يريد أن تقوم في مجتمعنا أصنام جديدة معبودة لأناس يزعم الزاعمون أنهم معصومون من كل خطأ[4].

وإنه ليعجب من هذا النفر الذي آمن بهؤلاء الرجال، ويعتريه الغضب والهياج عند الحديث عنهم بما لا يسره، في الوقت الذي لا يحرك فيه ساكناً ما تفيض به كتب المستشرقين وأتباعهم من ذم وتجريح وسباب للنبي صلوات الله عليه وسلامه، ولأصحابه نجوم الهدى[5].

إن حرية الرأي التي يتشدق بها الطاعنون في الإسلام والمسلمين،

(١) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٦٦.
(٢) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٦٧.
(٣) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٦٨.
(٤) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٦٨.
(٥) انظر «الإسلام والحضارة الغربية»: ٦٩، وانظر «حصوننا مهددة»: ٢٠٦.

والمجرحون للنبي وصحابته، كان حقًّا واجباً أن يتشدقوا بها عند تقرير حقيقة هؤلاء الرجال، بدلاً من أن «يحتموا بحرية الرأي في كل ما يخالفون به إجماع المسلمين، ويأبوا على مخالفيهم في الرأي هذه الحرية»[1].

والذين يرون في التطوير خطراً ضئيلاً، سرعان ما ينكشف خطر التدمير لهم إذا ما قرنوا التطوير في الشريعة بالتطوير في كل شيء، وهو ما ينبغي أن يقوم به الباحث عن الحقيقة، وما يستلزمه بحثه عن النظرة الشاملة «إن التطوير قد يبدو ضئيل الخطر إذا نظر كل باحث من زاويته الخاصة، فنظر إليه الأديب من زاوية الأدب، واللغوي من زاوية اللغة.. إلخ. والواقع أن إدراك حقيقة الشيء يستلزم النظرة الشاملة إليه، حتى تحيط به من كل نواحيه، والذي ينظر إلى التطوير هذه النظرة الشاملة، يستطيع أن يدرك خطورته ومدى آثاره، فإذا عمل صاحب اللغة على اللغة العربية، وعمل الخطاط على تطوير الخط العربي، وعمل الأديب على تطوير الأدب وطرائق التعبير والتخيل والنظم والأسلوب... فأي صلة تبقى لنا بعد ذلك بماضينا»[2].

وبهذا المفهوم ينتهي المطور للشريعة إلى الكفر المحض، لأنه أخضع الشريعة للحياة وسوغ به عوجها، والأصل تقويم الحياة بالشريعة، وانقيادها لها، ولأن «الذي يعتقد أن الشريعة منزلة من عند الله سبحانه وتعالى، وهو العليم الحكيم الذي لا يعزب عن علمه شيء، لا يعتريه شك في صلاحية ما شرع لخير الإنسان، وهو أعلم به في كل زمان ومكان»[3]، و«لأن الذي يؤمن بالكتاب كله... لا يشق عصا المجتمعين على الدين بدعوة كل منهم إلى أن يتأوله بحسب ما يناسبه»[4].

---

(١) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٦٩.

(٢) «الإسلام والحضارة الغربية»: ١٠٨، وانظر «حصوننا مهددة»: ٢٥٠.

(٣) «الاتجاهات الوطنية»: ٢/ ٢٩٦.

(٤) «الاتجاهات الوطنية»: ٢/ ٢٩٦.

الاختـــلاط وعمـــل المـــــرأة

هاتان مسألتان من مسائل المرأة تصلحان نموذجين من نماذج المسائل العـديدة التي دخلها التطوير لمسايرة الأفكار الغربية، فقد ظهرت أصوات عديدة تبيح الاختلاط وعمل المرأة، فانتقلوا وهم يصدرون في هذه الإباحة عن واقع الاختلاط. وواقع عمل المرأة في الدول الغربية. بهاتين المسألتين من دائـرة الضرورة إلى دائـرة الإبـاحة، وهـم بهذا النظر ينتقلون ويجعلون الأصل فرعاً والفرع أصلاً، وهذا هو التحايل على النصوص الشرعية، ولي أعناقها بلا تقوى ولا تدبر، مع أن الأصل في النظر فيهما الاعتماد على النص الشرعي للحكم عليهما، بغض النظر عن الظروف التي تحيط بهما، وقد وقف الدكتور/ محمد محمد حسين عند هاتين المسألتين وقفة متأنية.

فأمـا المسألة الأولى، وهي الاختلاط، فقد ناقشها من زاوية شرعية، وأخرى عقلية.

فأما الزاوية الشرعية فانتهى فيها إلى أن اختلاط الجنسين حرام شرعاً بعد أن ساق جملة من النصوص القرآنية التي تحرم هذا الأمر[1]، ورفض فكرة التطوير في هذه المسألة رفضاً قاطعاً، وعدَّها من أخطر الأشياء على الشريعة، لأن «أصحـابهـا يلجؤون إلى تدعيمهـا وتثبيت جذورهـا الغربية في أرضنا بأسانيد من الدين، بعد أن يحرفوا الكلم عن مواضعه في نصوص الشريعة من قرآن أو حديث أو خبر»[2].

وأمـا الـزاوية العقلية فذهب فيهـا إلى إيراد بعض المـزاعم التي تبيح الاختلاط بالاستناد إلى واقع الريف العربي، أو بما جرى عليه العرف عند

---

(١) «حصوننا مهددة»: ١٠٨.
(٢) «حصوننا مهددة»: ١٠٨.

بعض البائدين كالفراعنة، أو بالتوسل بمذاهب الدراسات النفسية والاجتماعية. وقد تولى الرد على هذه المزاعم ردًّا قويًّا منطقيًّا مقنعاً. فأما النقطة الأولى التي يزعم الزاعمون فيها أن الريف العربي قائم على الاختلاط فمردود، لأن واقع المسألة في الريف العربي ـ كما يقر الدكتور/ محمد محمد حسين ـ ليس قائماً على الاختلاط، بل هو قائم على السفور، وسفور القروية أو البدوية شيء والاختلاط شيء آخر[1].

وأما ما جرى عليه العرف عند بعض البائدين من مثل الفراعنة، وهو المزعم الثاني من مزاعم الداعين إلى الاختلاط فمردود، لأن الاقتداء بالفراعنة لا يكون «إلا من جاحد بالله ورسالاته وكتبه، لأن الفرعونية ليست ديناً، وليست مذهباً خلقيًّا، ولكنها عصر تاريخي قد يكون فاسداً، وقد يكون ضالًّا، وقد يكون كافراً بالله، وقد قطع الإسلام ما بين إبراهيم عليه السلام وبين أبيه، وقطع ما بين نوح عليه السلام وبين ابنه، وبين لوط عليه السلام وزوجه، فكيف لا يقطع الإسلام ما بيننا وبين الكفار من الفراعنة»[2].

وأما التوسل بالدراسات النفسية والاجتماعية لتبرير واقع الاختلاط، وهو المزعم الثالث، فقد رده بقوله: «أما الدراسات النفسية والاجتماعية، فهي الآن دراسات موجهة تخضع لمذاهب الدارسين وأهوائهم، ولذلك فهي متشعبة إلى مذاهب ومدارس متباينة، تتعرض لتغير دائم لا يكاد يستقر، فترك نصوص الدين الثابتة إلى هذه الفروض المتغيرة التي ينقض بعضها بعضاً، هو اتباع للظن المفرق للوحدة، والباعث على الفرقة المؤدية للفوضى والانحلال[3]».

وقضى الدكتور/ محمد محمد حسين يناقش مزاعم الزاعمين بأن

(١) انظر «حصوننا مهددة»: ١٢٦.
(٢) «حصوننا مهددة»: ١٢٨.
(٣) «حصوننا مهددة»: ١٢٨.

الاختلاط بين الجنسين يفضي إلى التخفيف من حدة الشهوة، والتلطيف من الإثارة الجنسية، فأوضح أن ميل «الرجل للمرأة وميل المرأة للرجل إذن هو جزء من قانـون عام اقتضتـه حكمـة الله سبحـانه، لا سبيل إلى تجنبه أو إنكاره»[١]، وتوضح ما زعمه دعاة الاختلاط، فهو صحيح من جانب غير صحيح من جانب آخـر، لأن «إطـلاق الأمـر في تجاوز الـرجـل والمـرأة واختلاطهما، لا يخلو من أحد أمرين: فهو إما أن يؤدي إلى إثارة الشهوة في الجنسين وزيادة حدتها، أو يؤدي إلى إضعافها وكسر حدتها»[٢]، فإن تحقق الأمر الأول فقد انتهينا إلى الفاحشة والفوضى، وإن تحقق الأمر الثاني فقد انتهينا إلى البرود الجنسي[٣].

ولا يجوز التقليل من أهمية البرود الجنسي بانه مرض «يسعى المصابون به إلى الأطباء يلتمسون عندهم البرء والشفاء من أعراضه، فكيف إذن نجعل هذا المـرض غاية من الغايات نسعى إليها باسم التنفيس عن الكبت، أو تهذيب الغريزة الجنسية»[٤].

ويستـدل الـدكتـور/ محمد محمد حسين تدعيماً لوجهة نظره ـ بالواقع المسـاعـد المحسوس الذي لا يستطيع أحد إنكاره، وهو مجموعة المصائب والآلام الناجمة عن الاختلاط، فيقول: «تكشفت تجربة الاختلاط في الجامعة عن مآسٍ لا يستطيع تجاهلها إلا مكابر أو مدنس»[٥].

وأما المسألة الثانية من مسائل المرأة التي عالجها الدكتور/ محمد محمد حسين فهي مسألة عمل المرأة، وقد تناولها بمثل الروح التي تناول فيها المسألة

(١) «حصوننا مهددة»: ١١٧.
(٢) «حصوننا مهددة»: ١١٧.
(٣) انظر «حصوننا مهددة»: ١١٧ ـ ١٢٦.
(٤) «حصوننا مهددة»: ١٢٠.
(٥) «حصوننا مهددة»: ٢٥٨.

الأولى، وحصر علاجها في زاويتين: الزاوية الشرعية، والزاوية العقلية.

أما الزاوية الشرعية فقد أنبأنا أنه لم يرد نص شرعي صريح يقضي بمنع المرأة عن العمل[1]، ولكن النصوص الشرعية، كما يقضي ظاهرها تنص على أن العمل للمرأة ليس أصلاً من أصول وظيفتها، وأن الأصل في وظيفتها أن تكون أمًّا وربة بيت وعرضاً يجب أن يحفظ ويصان[2]، واستدل على ذلك بالقوامة التي جعلها الله للرجل على المرأة، وهذه القوامة لم تكن لتقرر لولا أنها مبنية على أمرين:

الأمر الأول: صلاحية الرجل للعمل خارج البيت.
الأمر الثاني: هو مناط التكليف بالإنفاق على الأسرة.
وكون الرجل مسؤولاً عن الإنفاق. دليل على أن الأصل في المرأة ألا تعمل[3].

ومظاهر هذه القوامة كثيرة، وكلها دال على أن الأصل في الرجل أن يكون عاملاً خارج البيت، والأصل في المرأة أن تكون عاملة داخله، وقد ساق الدكتور/ محمد محمد حسين عدداً من هذه الآيات التي تقرر هذه القوامة، من مثل قوله تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادِكم للذَّكرِ مثلُ حظِّ الأنثيينِ﴾[4] فكون الرجل يأخذ ضعف ما تأخذه الأنثى من الميراث مبني على الإنفاق من جهة الرجل، وعدم العمل من جهة المرأة، لأن الإنفاق إنما يكون من العامل على الذي لا يعمل، انطلاقاً من الأصالة والفرعية في عمل كل من الرجل والمرأة، ومن مثل قوله تعالى: ﴿واستَشْهِدُوا شهيدين مِن رجالِكُم فإن لم يكُونا رجلين فرجلٌ وامرأتانِ ممَّنْ ترضَوْنَ من الشهداءِ أن تَضِلَّ إحداهُمَا

(١) انظر «حصوننا مهددة»: ١٣٨.
(٢) انظر «حصوننا مهددة»: ١٣٥، ١٤٧.
(٣) انظر «حصوننا مهددة»: ١٣٩ وما بعدها.
(٤) النساء: ١١.

فتذكِّرَ إحداهُما الأُخرى﴾[1].

ويعلق الدكتور/ محمد محمد حسين على هذه الآية بقوله: «فالآية الكريمة تعلل ذلك بأن المرأة التي ليس من شأنها أن تخالط الرجال في شؤون العمل والحياة، والتي تتحفظ في هذا الاختلاط إن دعتها إلى ذلك الحاجة أو ساقتها إليه المصادفة، هي مظنة أن لا تعي تفاصيل الواقعة التي تدلي بشهادتها فيها كما يعيها الرجل، لذلك كانت في حاجة إلى أن تظاهرها امرأة أخرى في هذه الشهادة، حتى يقوم اتفاقهما مقام شهادة رجل واحد»[2].

ومضى الدكتور/ محمد محمد حسين ـ كما قلت من قبل ـ في سوق عدد من الآيات يدل ظاهرها على إلقاء مسؤولية القوامة على الرجل، ومقتضى هذه القوامة الإنفاق، ومقتضى هذا الإنفاق العمل خارج البيت، ومقتضى هذا العمل تقرير أصل شرعي لعمل الرجل وعمل المرأة، وهذا الأصل يتلخص ـ فيما سقناه من قبل ـ بأن الأصل في عمل المرأة رعاية شؤون البيت، وحفظ النوع، وتربية الأولاد، وعملها خارج البيت ضرورة، والأصل في عمل الرجل قائم على الكدح خارج جدران البيت[3].

يقول الدكتور/ محمد محمد حسين: «في هذه الآيات تأكيد لما هو مقرر من تكليف الرجل بالإنفاق، هو تكليف يقوم على أن المرأة لا تعمل لكسب المال، لأنها مصروفة عنه إلى غيره من الأعمال التي أعدتها فطرة الله التي فطر الناس عليها، فإذا أخذ المجتمع بأن تعمل المرأة عمل الرجال، لزم تغيير هذه التشريعات، وتغيير هذه التشريعات يخرج المسلمين من إسلامهم، لأنهم مكلفون بالرجوع إلى كتاب الله في شؤون دينهم ودنياهم، والإذعان له، والتسليم مما جاء فيه، لا يحيدون عنه ولا يبدلونه، ولأن ما قرره القرآن من

(١) البقرة: ٢٨٢.

(٢) «حصوننا مهددة»: ١٤٠ ـ ١٤١.

(٣) انظر «حصوننا مهددة»: ١٣٨، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٤.

القوانين، وما وضعه من الحدود، منسوب إلى الله سبحانه وتعالى، محكومٌ على من يتجاوزه بالظلم والفسق بنص كتاب الله العزيز»(١).

ويرد على الذين يجعلون عمل المرأة أصلاً لا فرعاً، ويزعمون أن هناك عدداً من النساء اللواتي نبغن في العلم وشاركن في القتال، لإقامة الدليل على صدق دعواهم، بأن ذلك يجري مجرى الضرورة لا الأصل، ولا يجوز اتخاذ الضرورة أصلاً، قال: «والواقع أن للمرأة حقًا غير منكور في طلب العلم إن كان فيها استعداد له، ولم ينكر أحد أن هناك بعض الوظائف التي تلائمها كتدريس البنات وتطبيب النساء، ولم ينكر أحد حق المرأة في السعي الشريف للرزق إن دعتها إلى ذلك ضرورة، والإسلام سمح، قد أباح للضرورة أشياء كثيرة حتى الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله»(٢).

ويمضي في رد هذه المزاعم الباطلة قائلاً: «واشتراك المرأة في القتال هو من باب الاستثناء الذي تدعو إليه الضرورة، وهو في حدود الأعمال التي تلائم المرأة، فالتمريض خلف صفوف القتال، ومصدر الخطأ والخلط في ذلك كله ناشىء عن وضع الاستثناء والشذوذ موضع القاعدة والأصل، واتخاذ الأفراد حجة على الشرع نفسه»(٣).

وما قيل عن اشتراك المرأة في القتال، وعملها عند الضرورة، يقال في الرد على المغالطين الذين يبنون على بعض الحوادث الفرعية قواعد عامة من قبل قولهم في تبرير عمل المرأة، واتخاذه قاعدة «إن بين النساء نابغات، وبينهن عانسات، وبينهن من فقدت الزوج والعائل، فلماذا لا يشارك هؤلاء في الأعمال العامة في الحياة؟»(٤).

---

(١) «حصوننا مهددة»: ١٤٣.
(٢) «حصوننا مهددة»: ١٥٣.
(٣) «حصوننا مهددة»: ١٥٤.
(٤) «حصوننا مهددة»: ١٥٤.

ويجيب الدكتور/ محمد محمد حسين عن هذا السؤال بقوله: «وليس ما يقولونه إلا أعذاراً وحيلاً تُنتحل لفتح الباب تمهيداً للزحف»[1] وينتهي الدكتور/ محمد حسين من بحث الموضوع من جهة شرعية إلى ما تقدم ذكره، وإلى أن اتخاذ عمل المرأة «أصلاً من أصول التنظيم الاجتماعي يخالف روح الشريعة، ويناقض كثيراً من نصوصها، ويتعارض مع كثير من شرائعها وحدودها تعارضاً واضحاً»[2].

أما الزاوية العقلية في بحث هذه المسألة فينحصر في عدة ملاحظ عقلية، منها أن الدعوة إلى عمل المرأة جنباً إلى جنب مع الرجل، إنما هي دعوة نشأت في ظل الاحتلال الإنجليزي، فهي طارئة علينا تقليداً لمذاهب أهل الغرب، ويكفي هذا دليلاً على بطلانها[3]، ثم إن هذه الدعوة لم يُعرف أحد من المسلمين قد دعا إليها منذ أيام الرسول ﷺ إلى أن جاء قاسم أمين، فهل يعني هذا «أن صحابة رسول الله ﷺ وفقهاء المسلمين قد غفلوا جميعاً عن فهم نصوص دينهم، حتى جاء هؤلاء الذين أوحى إليهم شياطين الجن والإنس في باريس من أمثال قاسم أمين، فانتكس تفكيرهم بين معاهدها ومباذلها حين لم يعتصموا من دين الله بحبل متين، ولم يأووا بهديه إلى ركن شديد يزود عنهم كل شيطان مريد»[4].

ويستدل الدكتور/محمد محمد حسين على ما قرره - وهو رأي الدين - من أن عمل المرأة ضرورة لا أصل «إن إرهاق المرأة بالعمل يترك أثراً في مزاجها وفي أعصابها، وفي الثابت أيضاً أن ذلك الأثر ينتقل إلى جنينها في حالة الحمل، كما ينتقل إلى طفلها في حالة الرضاعة[5]، يضاف إلى هذا تركيب

(١) «حصوننا مهددة»: ١٥٤.

(٢) «حصوننا مهددة»: ١٣٩.

(٣) انظر «حصوننا مهددة»: ١٤٦.

(٤) «حصوننا مهددة»: ١٤٥.

(٥) «حصوننا مهددة»: ١٤٧

المرأة العضوي، وهو تركيب يؤكد أن العمل خارج البيت فرع في حياتها، لأن ما يعتريها من أعراض يؤكد عدم صلاحيتها للعمل فهي، تحيض أسبوعاً من كل شهر، وهي حالة تكاد تكون مرضاً يخرجها عن مألوف عادتها، وهي بعد ذلك إن حملت ظلت تعاني في الشهور الأخيرة من ثقل الحمل الذي يقيد حركاتها حتى يكاد يشلها، فإذا لم تكن المرأة العاملة متزوجة كانت مشغولة بالبحث عن الزوج، معرضة للزلل والتفريط عند كل بارقة أمل في الظفر به، وهي لا تعدل عن ذلك ولا تنصرف عنه إلا لعلة قد تكون شرًّا من البحث عن الزوج وأخطر»[1].

ويرد على المغالطين الأدعياء ممن يسمون أنفسهم «أنصار المرأة» الذين يزعمون أن «عكوف المرأة في منزلها فيه تعطيل لنصف المجتمع، وقولهم هذا مبني على أن المرأة ليس لها عمل في المنزل، والواقع أن وظيفتها في تدبير شؤون البيت ورعاية الزوج والولد وقضاء حاجاتهم تستغرق كل وقتها لو أُدِّيَت على وجهها، بل إن وقتها يضيق بها في بعض الأحيان»[2]، «ويستدل على أن عمل المرأة في البيت حقيقة واقعة، بلجوء العاملات إلى الاستعانة بالخدم داخل البيوت، وبإرسال الأطفال إلى دور الحضانة»[3].

غير أن هذا الاعتماد على الخدم ودور الحضانة لا يقوم مقام الأم، ولا يسد مسدَّها، ولا يؤدي إلى كمال تنشئة الطفل، ذلك لأن من وراء تنشئة الطفل غريزة الأمومة[4]، وهو غير راض عن وسائل الإرضاع الصناعية، لأن اللجوء إلى هذه الوسائل «خيانة للأمانة، وتفريط فيها، وتعطيل لسنة الله، لأن الله سبحانه لم يخلق ثدي الأنثى لتبرزه في السهرات، وتكشف عن جماله

(١) «حصوننا مهددة»: ١٥٠.
(٢) «حصوننا مهددة»: ١٥٢.
(٣) انظر «حصوننا مهددة»: ١٥٢.
(٤) انظر «حصوننا مهددة»: ١٤٨.

وتنصبه شركاً في الطرقات، ولكنه أوجده أصلاً للإرضاع»[1].

ويرد على الذين يسوغون عمل المرأة بالكسب الاقتصادي، وبمساعدة الأمة على النهوض اقتصاديًّا بقوله: «فأي شيء تكسبه الدولة إذا كانت المرأة تخرج للعمل وتربط مكانها شخصاً أو شخصين تعطلهما عن العمل؟ أين هو الكسب الاقتصادي المزعوم؟ وهل هذا إلا الخلل عينه؟ تشتغل المرأة خارج البيت بأعمال الرجال، ويُسقط من حساب الأيدي العاملة رجل أو رجلان يقومان بأعمالها في المنزل، ويسقط من حساب الدارسين والمشرعين جيل مضيع لا يقام لضياعه وزن في ميزان الكسب والخسارة؟»[2].

ويرى الدكتور/ محمد محمد حسين أن الأولى والأجدر استيعاب «جميع الرجال المتعطلين عن العمل قبل أن يسمح لامرأة واحدة بتولي عمل من الأعمال العامة»[3].

ويمضي الدكتور/ محمد محمد حسين في بيان المخاطر التي ترتبت على مشاركة المرأة الرجل في جميع أعماله، فيقرر أن هذه الظاهرة أفقدتنا شيئاً عزيزاً كان متوافراً في الأجيال الماضية وهو المروءة، بيان ذلك أن الجيل السابق نشأ على عقيدة مركوزة في نفسه، قائمة على كفالة المرأة وتعهدها وتربيتها وإعانتها «فلما عملت المرأة لنفسها، وشاع ذلك في المجتمع ماتت هذه العادة، وماتت معها المروءة التي كانت تدفع إليها، والغيرة التي كانت سبباً في المحافظة عليها»[4].

من هذا العرض يظهر لنا كيف عالج الدكتور/ محمد محمد حسين مسألة

(١) «حصوننا مهددة»: ١٤٨ ـ ١٤٩.
(٢) «حصوننا مهددة»: ١٥٣.
(٣) «حصوننا مهددة»: ١٥٣.
(٤) انظر «حصوننا مهددة»: ١٣٥.

عمل المرأة، وكيف وضع هذه المسألة في إطاريها الشرعي والعقلي الصحيحين، وأن الأخطاء التي ترتكب عند دراسة هذه المسألة إنما ترجع إلى عدم التفريق بين الأصل والفرع، والقاعدة والضرورة، وإلى التقليد الأعمى لأوضاع المرأة الغربية، ولو أن المقلدين يعقلون لكفوا عن هذا التقليد بعد أن رأوا بأعينهم ما يتجرعه الغرب من آثار خروج المرأة على فطرتها ووظيفتها الأساسية، وهي آثار انتهت به «إلى ما هو فيه من مشاكل اجتماعية واقتصادية هزت دعائم مجتمعه هزًّا عنيفاً أفقده استقراره، وعرض سلامته وكيانه لأشد الأخطار»(١).

وهذا التقليد هو الذي أفقد المغالطين ممن يسمون بأنصار المرأة توازنهم العقلي، وجعلوا دأبهم بحث المسائل مقلوبة عن وضعها الصحيح، فليست المسألة قائمة على إثبات قدرة المرأة على القيام بأعمال الرجل(٢)، ولكن المسألة هي «هل يؤثر اشتغال المرأة بأعمال الرجال على إتقانها لعملها النسوي الأصيل؟ ثم ماذا يحدث لو انصرف كل النساء إلى أعمال الرجال؟ هل يتحتم على الرجال عند ذاك أن يقوموا بأعمال النساء؟ وإذا قبلوا ذلك فهل يصلحون له وهل يتقنونه؟»(٣).

وبهذا الذي قدمناه نختتم القول في معالجة الدكتور/ محمد محمد حسين لمسألة عمل المرأة، وهي معالجة مبنية على أساس الالتزام التام بصورة المرأة ووضعها في الإسلام، من غير أن يتخذ من الأفكار الغربية أو الشرقية مثلاً يحتذيه. ويظهر من هذا العرض كذلك دقته وعمقه وتغلغله في الطريقة التي يدير بها الشرع الإسلامي أحكامه، ثم يظهر الشطط والانحراف الذي ارتكبه المسمون بأنصار المرأة، وما جلبوه على المجتمع الإسلامي عامة والمرأة

(١) «حصوننا مهددة»: ١٣٦، وانظر ص ١٥٢ أيضاً.

(٢) انظر «حصوننا مهددة»: ١٤٦.

(٣) «حصوننا مهددة»: ١٤٦ ـ ١٤٧.

خاصة من شرور وآلام لا تُحصى. وهذا العرض يكشف كذلك موقف الدكتور/ محمد محمد حسين الحازم الصارم من قاسم أمين ودعوته التي قررها في كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة»، وهو الموقف الذي تلخصه كلمات المرحوم التالية: حيث قال:

«وقد كان قاسم أمين هو أول من جرأ الناس على تحريف النصوص حين طلع علينا بطائفة من المزاعم التي تقوم على المجازفة، ومن النصوص المحرفة عن مواضعها، والمخلوعة من سياقها خلعاً يخرجُها عن مدلولها، وحين تقيد من كتب التاريخ ورواياته ـ على اختلاف درجاتها ودرجات مؤلفيها ـ كل شاذ وغريب، فحشدها في حيز واحد، وضم بعض أشتاتها إلى بعض، حتى خيل إلى قارئها أنها ـ على شذوذها وقلتها ـ شيء مألوف كثير الوقوع، ومع أن هذا الذي جمعه هو خلاصة مافي الكتب ـ صحيحها وسقيمها ـ من غرائب الأخبار والآراء التي تصور حالات شاذة نادرة لا تنهض بها حجة، ولا يبطل بها عرف، ومع أن كثيراً من النصوص التاريخية أو الفقهية التي اقتطفها ناقصة الدلالة، غامضة العبارة، فقد استطاع أن يروج ذلك كله بين الناس، وبمرور الأيام، بفضل قوة حزبه(١) الذي كان يسميه اللورد كرومر حزب الشيخ محمد عبده حتى أصبحت هذه النصوص من بعد ـ على فساد الاستدلال بها ـ هي البضاعة المشتركة لمتابعي دعوته ومطوريها(٢)».

---

(١) يقصد بحزب قاسم أمين حزب الأمة، وهو حزب سياسي كان يصدر صحيفة سماها الجريدة، وتولى تحريرها الأستاذ/ أحمد لطفي السيد. ويرى الدكتور/ محمد محمد حسين أن هذا الحزب حزب موال لبريطانيا ومؤيد لها، جعل دأبه الهجوم على الجامعة الإسلامية والجامعة العربية، لا يراهما إلا وهماً من الأوهام، انظر «الاتجاهات الوطنية» ١/٨، ١/٧٩، ١/٩٠، ١/٩١، ١/٩٣، ١/٢١٥، ٢/١٣٥، وأما رأي المؤلف في الشيخ محمد عبده فقد قدمناه فيما مضى.

(٢) «حصوننا مهددة»: ١٣٧ ـ ١٣٨، وانظر «الاتجاهات الوطنية»: ١/ ٢٨٠ ـ ٢٩١.

مثل الدكتور/ محمد محمد حسين في بدائله الفكرية كل مفكر مخلص جاد، فهو يهدم ليبني، ويقلع الفكر الفاسد ليزرع مكانه الفكر الصحيح.

والبدائل الفكرية عنده تتلخص في الإسلام الرؤية الكونية الشاملة، والمنهج الحضاري الكامل، وتطبيقه في كل ميدان من ميادين المجتمع، وفي كل منحى من مناحيه، ويترتب على ما يقوله صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، وقدرته على قيادة المجتمع الإسلامي، ومواجهة المشكلات والقضايا على اختلاف ألوانها من غير استعانة بالأفكار الغربية مهما كان قدر هذه الاستعانة.

وبهذا التصور الشامل الدقيق يمثل الدكتور/ محمد محمد حسين مرحلة من مراحـــل الفكـر الإسـلامي في العصر الحـديث، هي مرحلة الـذاتية الإسلامية، المبنية على الثقة التامة بالأحكام الشرعية الإسلامية. ومن أجل هذه العقيدة المذكورة في أعماق الدكتور/ محمد محمد حسين دأب على الإلحاح على ضرورة إثبات الشخصية الإسلامية، والمقومات الذاتية، والطابع المميز، ودأب على التخـوف الدائم من محاولات هدم هذه الشخصية أو محوها أو تمييعهـا، يقول: «وللعرب طابع يميزهم، ولهم شخصية قد ضلوا عنها في عصور الضعف والخمول، وأضلهم عنها المستعبدون وأذنابهم»، ولن تتحقق لهم نهضة إلا إذا أحيوا هذا الشخصية وتمسكوا بمقوماتها، وتعصبوا لرموزها وشاراتها، وميزوا أنفسهم بطابعهم الخاص، وسيظلون بغير ذلك لأنهم لا يبتكرون حتى يحسوا في أنفسهم القدرة على الابتكار»[1].

ويقول في موضع آخر متخوفاً من ضياع الطابع: «وإذا فقدنا كياننا،

(١) «حصوننا مهددة»: ١٩٥.

وفقدنا القدرة على التكتل والتجمع، أصبح من اليسير على الشرق أو الغرب كائناً ما كان من خلق الله أن يُلْحِقنا به، ويجعلنا تابعين له ندور في فلكه، ونسبح بحمده من دون الله»[1].

وإيمانه العميق بالشخصية الإسلامية لا يعني التحجر أو الجحود وإنما يعني أن توضع المسائل في نصابها ولا تؤخذ بالقسر والاعتناف، فالاجتهاد مثلا باب مفتوح لكل قادر عليه مستكمل لشروطه، وهو «لم يغلق بابه، ولكن المسلمين أحسوا في العصور المتأخرة من أنفسهم عدم القدرة عليه، وأحسوا أن أصول المسائل وفروعها في مختلف احتمالاتها قد فصلت تفصيلاً»[2] وبهذا المفهوم يتضح الفرق بين الاجتهاد والتطوير، الأول يجري وفق الرسوم والأصول الإسلامية المقررة، والثاني يخرج عن هذه الأصول[3].

ويعترف الدكتور/ محمد محمد حسين أن المجتمع الإسلامي مجتمع ضعيف متأخر، ويرد هذا التأخر إلى تخلفهم في العلوم التجريبية، قال: «العرب لم يُغلبوا من ضعف في الفلسفة، ولا الآداب، ولا التاريخ، ولكنهم غلبوا وضربت عليهم الذلة، لأنهم متخلفون في العلوم التجريبية المادية بكل فروعها الكيمائية والطبيعية»[4].

وينبني على سبب التخلف كما يراه الدكتور/ محمد محمد حسين دعوة حارة قوية تقضي بنقل هذه العلوم التجريبية جميعاً إلى المجتمع الإسلامي «ولو أنصف كل القائمين على الترجمة في هذا البلد لجعلوا كل همهم مصروفا إلى

---

(١) «حصوننا مهددة»: ٢٥٠، وتحدث في مواضع أخر عن التطوير المفضي إلى انعدام الذات والمقومات، انظر «حصوننا مهددة»: ٢١، ٢٩، ٨٣، ١٧٠، ١٨٤، و«الاتجاهات الوطنية»: ١/ ٢٨٣.

(٢) «الإسلام والحضارة الغربية»: ٧٢.

(٣) انظر «حصوننا مهددة»: ٣٦، و«الإسلام والحضارة الغربية»: ٧٢.

(٤) «حصوننا مهددة»: ١٩٣.

نقـل العلوم التجـريبية والرياضية وحدها، لا يشتغلون بترجمة غيرها حتى نستكمل نقصنا فيها»[1].

وهو يمضي في اتخاذ أسباب النهوض إلى أبعد من هذا حين يدعو إلى تعريب هذه العلوم، لأن النهضة الصحيحة لا تتأتّى من غير أن يكون لسان هذه العلوم هو اللسان العربي، يقول: «لا يبلغ العرب درجة الأستاذية في هذه العلوم الجديدة التي أذلهم عدوهم بتفوقه عليهم فيها إلا إذا أصبحت هذه العلوم ملكاً لهم. وهم لا يملكون هذه العلوم ولا يحسون أنها علوم عربية إلا إذا قرؤوها بالعربية وكتبوها بالعربية، وسيظلون يحسون أنهم غرباء عليها وأنهم متطفلون على أصحابها طالما ظلوا يقرؤونها ويكتبونها بغير لغتهم»[2].

ولقد حقق مجمع اللغة العربية الأردني بعض أماني الدكتور/ محمد محمد حسـين حين شرع منذ اليوم الأول من تأسيسه في ترجمة طائفة من الكتب العلمية التجريبية، وحين شرع في تعريب طوائف من المصطلحات العلمية، وهو الآن يقود حملة نشيطة من أجل تعريب العلوم التجريبية في الجامعات الأردنية، وفي الوقت الذي يؤمن الدكتور/ محمد محمد حسين بأن حل مشكلة التخلف يكمن في نقل العلوم التجريبية جميعها، لا يؤمن بنقل الكتب التي تحدد طرز الحياة والفكر وقواعد التربية والسلوك والأخلاق، لأن هذا الجانب لا نعاني منه نقصاً، ولأن ديننا الإسلامي قد تكفل بهذه الجوانب جميعاً. ثم إن هذه الكتب فيها غير قليل من الأفكار المتعارضة مع الإسلام، مما يؤدي إلى بلبلة واضطراب كثير في المجتمع الإسلامي.

يقـول الـدكتـور/ محمـد حسـين: «لأن الاشتغال بنقل كتب الأدب والفلسفة والتاريخ والتربية والأخلاق وما يشاء من الثقافات الإنسانية، على

---

(١) «حصوننا مهددة»: ١٩٧، وانظر جـ ٧٢، ٧٤، ١٧١، ١٧٦، و«الاتجاهات الوطنية»: ٢٨٣.

(٢) «حصوننا مهددة»: ١٩٥، ١٩٧.

هذا النحو الذي تسوده الفوضى وسوء الاختيار، بل سوء القصد في كثير من الأحيان، يضر مرتين، يضر بإفساد أذواق شبابنا، وتدمير كيانهم، وتحويل شخصيتهم بحيث يصبحون غرباء بين قومهم، ثم يصبح قومهم بعد قليل هم الغرباء بينهم حين يكثر عددهم ويكثف جمعهم، ويضر مرة ثانية بتبديد الجهد والمال في غير وجهه، وصرف العرب عن الطريق الصحيح إلى تحررهم ثم سيادتهم»[1].

ويقول في موضع آخر: «ومن المؤكد أننا في غير حاجة إلى استيراد قواعد السلوك والتربية والأخلاق التي تدل الإمارات والبوادر على أنها ستؤدي إلى تدمير حضارته - أي: الغرب - والقضاء عليها قضاءً تامًّا في القريب العاجل»[2].

وقد حقق مجمع اللغة العربية الأردني مرة أخرى أمنية المرحوم حين قرر عدم نقل شيء من كتب الثقافة الغربية كالتاريخ والفلسفة والتربية ونحو ذلك، وعوّل على نقل الكتب والعلوم التجريبية، ذلك لأن المجمع ينطلق من المنطلق الذي آمن به الدكتور/ محمد محمد حسين، وهو أن الداء يكمن في تخلف العرب عن ركب العلوم المادية التجريبية، فلا حاجة بنا إلى نقل كتب الثقافة.

وهذان الجانبان منفصلان في نظر المرحوم، لا يجوز التباس أحدهما بالآخر، لأن أحدهما - كما يقول - عامل بناء، والآخر عامل هدم، «إننا نحتاج إلى مواد البناء، لأن لدينا من عوامل الضعف ما يكفي»[3].

والواقع أن هذا الفصل بين علوم الغرب المادية والتجريبية وبين ثقافته يدعو إلى الإعجاب حقًّا، لأنه يدل على نفاذ في تشخيص الداء، ونفاذ في

(١) «حصوننا مهددة»: ١٩٧.

(٢) «حصوننا مهددة»: ٧٧.

(٣) «حصوننا مهددة»: ٧٧.

الوقوف على الدواء، وهو فصل لم يتهيأ للمصلحين من قبل، وهو كفيل بوقف المأساة التي يعانيها العقل المسلم في العصر الحديث، لأن تعويد المسلمين إلى هذه اللحظة من الزمان لا يزال وقفاً على ما حذر الدكتور/ محمد محمد حسين من نقله، وبهذا الفصل يسهل علينا تفسير انقسام المصلحين في أواخر القرن الماضي والقرن العشرين إلى ثلاثة أقسام: قسم يدعو إلى الفناء في الغرب والذوبان في أفكاره خيرها وشرها[1]. وقسم يدعو إلى التمسك بآدابنا وعاداتنا وتقاليدنا وديننا من غير أن نفيد شيئاً مما حققه الغرب من تقدم[2]. وقسم يدعو إلى التوفيق بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي، وهو ما سماه بتطوير الإسلام.

والواقع أن هذه الأقسام الثلاثة على اختلافها تلتقي على شيء واحد، وهو النظر إلى جوانب الحضارة الغربية نظراً كليًّا شاملاً من غير فصل بين عناصر هذه الحضارة، وهو ما أدى إلى إخفاق هذه الأقسام جميعاً من الجهة النظرية على الأقل، لأن الأخذ بأفكار القسم الأول يفضي إلى هدم الشخصية الإسلامية، ومحو المقومات الذاتية، فضلاً عن عدم تفريق أصحاب هذا القسم من أقسام الإصلاح بين عناصر الخير والشر في الحضارة الغربية.

والأخذ بأفكار القسم الثاني يفضي إلى الثبات على التخلف وعدم الحركة، مع أن المطلوب هو السعي وأخذ الأسباب الداعية إليه.

والأخذ بأفكار القسم الثالث يفضي - كما تقدم - إلى إفساد قيم الإسلام، وإدخال عناصر التشويش فيها، والتباس الزائف بالأصيل فضلاً

---

(١) في أصحاب هذا الاتجاه سلامة موسى في «اليوم والغد»، وطه حسين في «مستقبل الثقافة في مصر»، انظر «الاتجاهات الوطنية»: ٢٤٣/ ١، ٣٤٣/ ١ - ٣٤٤، ٢١٢/ ٢ - ٢٣١.

(٢) انظر «الاتجاهات الوطنية»: ٢٩١/ ١، ٣٤٣/ ١، ٣٤٤.

عن جعل الإسلام تابعاً للحياة منقاداً لها. بدلاً من أن يقودها، وبذلك تنتهي وظيفة الدين الأساسية[1].

وهو تعجب من هؤلاء الذين يتصورون أن من الصعوبة بمكان نقل العلوم التجريبية من الغرب من غير نقل ثقافته، يقول الدكتور/ محمد محمد حسين في معرض رده على الدكتور/ كامل عياد: «ولست أدري إلى أي شيء قد استند الكاتب فيما يزعمه من أننا لا نستطيع الاستفادة من تجارب الغرب في التفوق الصناعي إلا إذا نقلنا ثقافته، أي: إننا لا نستطيع في زعمه ووهمه أن ننقل الصناعة وحدها دون الإلحاد والمادية والدعارة والانحلال التي تنطوي عليها ثقافة الغرب اليوم . . . هذا زعم عجيب، هو مجرد ادعاء لا يقوم عليه دليل»[2].

وهو زعم عجيب حقًّا، ولا دليل عليه غير دليل الجهل والسطحية، ولو أن الكاتب الذي تحدث عنه الدكتور/ محمد محمد حسين أعمل عقله لاهتدى إلى ما اهتدى إليه المرحوم من التفرقة الذكية الواعية المبصرة بين الثقافة والعلم التجريبي، وهذه التفرقة قائمة على أن لكل منهما ميداناً غير ميدان الآخر، «فالعلم والمقصود به في الاصطلاح الأوروبي Sience هو الرياضة والعلوم التجريبية، يتصل بالملموس المحسوس الذي أثبتته التجربة، وتستطيع أن تعيد إثباته في كل زمان ومكان، أو هو يتصل بالمنطق العقلي الذي يشترك كل العلوم البشرية في إدراكه على وجه القطع واليقين مثل علوم الرياضة، وكلها مما يشترك في إدراك حقائقه كل الناس بقدر واحد لا خلاف فيه، ويمكن إعادة تجاربه ومراجعتها والاستيثاق من صحتها والانتفاع بنتائج تطبيقها على اختلاف الأزمنة والأمكنة. أما الثقافة فهي تختلف باختلاف الأجناس والبيئات والأديان حسب حكمة الله سبحانه

---

(١) انظر ما مضى: ص ٨

(٢) «حصوننا مهددة»: ١٧١.

وتعالى. . . والثقافة لا تتصل بالمحسوس الملموس أو المعقول المشترك كما هو الشأن في العلم، لأن بعض عناصرها يتصل بقيم الخير والشر، والجمال والقبح، والحق والباطل جميعاً، ويعتمد على ما وراء المادة من الغيب الذي لا تتفق عليه العقول ولا تدركه الأفهام وتشمله التجارب ولا يتطاول إليه الفكر»[1].

وهذه التفرقة قادته إلى التحذير من استخدام الطريقة التجريبية في عالم المجردات، لأن سبيل المجردات غير سبيل العلوم المادية، قال: «حقيقة الأمر في هذه العلوم التجريبية أنها مفيدة في ميادينها المادية فحسب، ولكنها غير صالحة بأن تعالج عالم المجردات الذي لا يخضع للحس، لأنه لا يخضع لتجاربها، وذلك هو ما يسميه الإسلام عالم الغيب، أي: ما غاب عن الحس، ونحن مكلفون فيه بأن نؤمن بما جاء به الدين، لأنه هو السبيل الوحيد إلى معرفته وإلى تحديد موقفنا منه وما فيه فائدتنا بالقياس إليه، فميدان الدين إذن غير ميدان العلم التجريبي»[2].

وهو يحذر أيضاً من نقل بعض الأفكار النفسية والاجتماعية والروحية والتي شاع بين الناس أنها علوم كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الروح، فهذه الأفكار تتلبس بلباس العلم وهي ليست منه، لأن العلم ما خضع للتجربة وأثبتته الحواس، ويمكن إعادة تجاربه مرة أخرى في كل زمان ومكان، أما هذه فليست كذلك، لأنها لا تقوم على قواعد ثابتة مستقرة، ولأنها فروض عقلية وتخمينات قد تَصْدُق وقد لا تصدق، ولأن التجارب التي يجريها أصحابها لا تعطي نتائج قطعية، بل تعطي نتائج ظنية، ولأن هذه التجارب لا تشمل أفراد الجنس الذين تجري عليهم التجارب جميعاً مهما قيل

---

(١) «حصوننا مهددة»: ١٦٨ ـ ١٦٩، وانظر أيضاً ص ١٧٤، ١٧٦، و«الإسلام والحضارة الغربية»: ٩، انظر «الاتجاهات الوطنية»: ١/٢٨٣.

(٢) «حصوننا مهددة»: ١٧٦، وانظر ص ١٧٤، ص ٧٤.

في تنوع هذه التجارب وشمولها، ولأنها قد تصدق على جيل من الناس ولكنها لا تصدق على الأجيال السابقة والأجيال اللاحقة، ولأن رواد هذه العلوم مختلفون في نتائجهم اختلافاً شديداً بينما النتائج العلمية التجريبية نتائج واحدة، ولأنها دراسات مسخّرة لمذاهب سياسية معينة، ترمي إلى هدم الروابط الدينية والقومية، وتتذرّع باسم العلم، ولأن تجاربها تعتمد على صدق المستجوبين ونزاهة الباحثين وأمانتهم[1]، وبناء على هذا كله فإن «من المجازفة الخطرة الهدامة أن نترك نصوص الدين الثابتة المسلمة إلى هذه الفروض المتغيرة التي ينقض بعضها بعضاً، وإن كل سند أصحاب هذه الدعاوى النفسية والاجتماعية الشاردة هو الظن[2]» ومن أجل ذلك «لم يكن هناك مندوحة من الاستناد في التنظيم الاجتماعي والتقنين التربوي الخلقي إلى الشرائع السماوية، لأن موضوعها هو هذا التنظيم وجمع الناس عليه»[3].

وهو يرى أن اعتماد الناس في هذا الزمان على علمي النفس والاجتماع قد أدى إلى تفريق الناس عما كانوا متحدين عليه، وهو الدين «ولم يستطع واحد منهم أن يقدم البرهان الحاسم على صدق مذهبه، فماج بعض الناس في بعض، وبقي البعض على بعض، وأصبح العلم والمعرفة عامل فرقة وفساد وانحلال، بدل أن يكون عامل سعادة ووئام»[4].

غير أنه لا يدعو إلى مصادرة الأبحاث النفسية والاجتماعية جميعاً، ولكنه يدعو إلى تقييدها بقيود الدين، قال: «وليس يفهم من ذلك أننا ندعو إلى

(١) انظر «الاتجاهات الوطنية»: ٢٨٣/١، «حصوننا مهددة»: ٤٩، ٥٩، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ١٢٨، وانظر «الروحية»: ٧ - ٩، ١٤، ١٦، ٢٤، ٧٩، ٤٤، ٥٦، ٦٧، ٧٤

(٢) «حصوننا مهددة»: ٧٣، وانظر ١٢٨.

(٣) «حصوننا مهددة»: ٧٤.

(٤) «حصوننا مهددة»: ٧٦.

مصـادرة البحوث النفسية والاجتماعية والأخلاقية، فذلك ما لا يدعو إليه عاقل يؤمن بنعمة العقل والتفكير، ولكن الذي ندعو إليه هو أن ندرك حق الإدراك مدى طاقتنا العقلية والفكرية، فنقيد أنفسنا في هذه البحوث وأمثالها مما يتصـل بعـالم الغيب ـ والتقنين الخلقي جزء منه ـ بقيود الدين، ونلتزم حدوده، ولا نعتسف الطريق - حتى لا نتعرض للضلال والهلاك».

وأما الروحية فقد رفضها بلا تحفظ، وخصص للحديث عنها كتاباً كاملاً سماه «الـروحية الحـديثـة دعوة هدامة تحضر الأرواح، وصلتها بالصهيونية العـالمية» وعنوان الكتاب وحده كافٍ في بيان موقف الدكتور/ محمد محمد حسين الرافض في هذه الدعوة، فهي دعوة خطرة هدامة تتلبس بلباس العلم ولا صلة لها بالعلم، ترمي إلى هدم الأديان ومحوها، وتدّعي محاربة المادية والإلحـاد، وقـد مضى في هذا الكتـاب ينقض أفكـارهـا، ويكشف زيف الـدعـاوى التي تتذرع بها، ويبين عن أساليبها وغاياتها، وخلاصة رأيه في المسألة قوله: «وفي أعجب أساليبُ الهدم في أيامنا هذه وأخبثها أسلوب يتزيى بزي الـروحية، ويظهـر بمـظهـر المحـارب للإلحاد والمادية، ويتخذ بزعم أصحابه أسلوب العلوم التجريبية في استدعاء أرواح من مات ومناجاتهم، واستفتـائهم في مشكـلات الغيب، ومعضـلاته، والاستعانة بهم في علاج مرض الأبدان والنفوس، وفي الإرشاد إلى المجرمين، وفي الكشف عن الغيب والتنبؤ بالمستقبل»(١).

وبعد. . فهذا هو الدكتور/ محمد محمد حسين من خلال آرائه في قضية من قضـايا الإسلام التي عالجها، وهي قضية التوفيق بين الحضارة الغربية والحضـارة الإسـلامية، وقد كشف عرض آرائه عن شخصية فكرية واعية مستنيرة بنور الإسلام في كل صغيرة وكبيرة.

---

(١) «الروحيـــة»: ١٣.

وربما لا يرى القارىء في مجموع أفكاره أفكاراً جديدة كما يحب المجددون أن يروا، ولكن الجديد في آرائه هي هذه القدرة في تمثل الأفكار الإسلامية تمثلاً صحيحاً وتنزيهها عن الواقع المؤلم، ومحاكمة هذا الواقع محاكمة قوية منطقية مقنعة. والجديد فيها أيضاً أنها تأتي في وسط فكري مضطرب البال، مشتت القوى، موزع القدرات. فكيف تأتّى للدكتور/ محمد محمد حسين هذا الصفاء في التصور، بحيث استطاع أن يفضح الحجب والأستار والحواجز الفكرية التي نصبها المستعمر، وانطلق يحاكم الأحداث والأفكار محاكمة إسلامية صرفة؟ ذلك فضل من الله ونعمه.

هذا يجعلني أقرر بأن الدكتور/ محمد محمد حسين يقف اليوم على رأس مرحلة جديدة من مراحل الفكر الإسلامي في العصر الحديث، هي مرحلة الذاتية الإسلامية التي تؤمن بالإسلام المنهج المستقل عن غيره من المناهج، وهي مرحلة كثر اليوم المؤمنون بها من أبناء الأمة الإسلامية الذين يتطلعون بشوق ولهفة إلى اليوم الذي تشق فيه هذه الأفكار طريقها نحو الغاية المنشودة.

رحم الله الدكتور/ محمد محمد حسين رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته، فقد كان أمة في رجل، وإن أمثاله ـ والله ـ لقليلون.

* * *

الفهرس